الفصل الثاني

المسألة المصرية في معترك الدبلوماسية الصليبية البيزنطية ١١٦٣-١١٦٨م/٥٥٨-٥٦٤هـ.

- عوامل حذر عموري إزاء بيزنطة في بداية حكمه.
- بوادر الاتصال بين عموري ومانويل.
- توتر المباحثات الصليبية البيزنطية بشأن غزو مصر.
- حملة عموري الرابعة على مصر عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ ونتائجها.

obeikandl.com

يشوب علاقات مملكة بيت المقدس الصليبية بالإمبراطورية البيزنطية في عصر الملك عموري الأول الكثير من الغموض والإبهام على مستوى السياسة الخارجية للمملكة، وبخاصة أن الإمبراطورية البيزنطية لم يكن لها اهتمام كبير بالكيانات الصليبية فيما سبق مثلما أولتها في هذه الحقبة الصغيرة من الزمن (١١٦٤-١١٧٤م/٥٥٩-٥٦٩هـ)، ولم يكن اقتراب الإمبراطورية البيزنطية من المملكة والإمارات الصليبية إلا للرغبة البيزنطية في الحفاظ على توازن القوى في شمال بلاد الشام وقيليقية، وحينما تسابق كل من عموري ونورالدين للاستيلاء على مصر، لم تجد بيزنطة بداً من المشاركة إلى جانب المملكة في هذا المضمار، خصوصاً عقب النجاح الذي حققه عموري في مصر بعد حملته الأخيرة عليها - كما سبق وأشار الباحث - وعليه فقد ظل شكل التقارب الذي قام بين المملكة والإمبراطورية مرهوناً إلى حد كبير بالتحرك نحو مصر.

ولعل من أهم ما يلاحظ على شكل علاقة المملكة بالإمبراطورية في مستهل عصر الملك عموري ما يوصف بالنبرة العدائية التي استهل بها الأخير سياسته تجاه بيزنطة مما يتضح من الخطابات التي وجهها هو وغيره من رجال أنطاكية إلى الملك الفرنسي لويس السابع للشكوى مما تخطط له بيزنطة تجاه أنطاكية، وأنهم يخافون على شمال بلاد الشام من ازدياد نفوذ كل من نورالدين ومانويل على حد سواء[1]، ويرجح مجدالينو نسبة هذا التوتر - لا العداء - في علاقة عموري بالإمبراطور مانويل إلى حاجة الأخير إلى بعض الوقت لكي يكون قادراً على تكوين روابط مع الملك عموري، مشابهة لعلاقة مانويل بالملك بلدوين الثالث أخو عموري، وأرجع مجدالينو سبب اتخاذ مانويل ذلك الاتجاه نحو عموري إلى شكوك الأخير في مخططات بيزنطة تجاه أنطاكية، وأن عموري تجنب التبعية لبيزنطة مستغيثاً بالضمير الصليبي لدى لويس

---

(1) Gaufredi Fulcherii, procuratoris militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.57,59; Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62. See also: Lilie, *Byzantium*, p.187.

السابع، وعليه فقد كتب عموري - وغيره - الرسائل التي حملت نبرة عداء عموري نحو بيزنطة إلى لويس السابع؛ لتحذير لويس من مغبة سقوط أنطاكية في يد البيزنطيين الذين لم يُفَرق بينهم وبين المسلمين[١].

وقد سعى لِيلِي Lilie إلى إيضاح طبيعة عداء عموري لبيزنطة معتمداً على أن خطابات عموري التي أبدت استعداءه لبيزنطة كانت سابقة على معركة حارم - التي سيشار إليها بعد قليل - وأرسل بعضها الآخر بعد حدوث معركة حارم، وفيما يتعلق بمضمون الرسائل التي سبقت معركة حارم فإن لِيلِي يُعلّق أهمية كبيرة على ما تلا محاولة عموري التوسط في الخلاف الذي وقع بين توروس الثاني ورعايا أنطاكية من ناحية وبين الحاكم البيزنطي إندرونيقوس إيفوربينوس Euphorbenos في قيليقية من ناحية أخرى بأنه تصالح مع بيزنطة، وأنه لم يتوسط في ذلك النزاع إلا لهذا الغرض[٢]، كما يُلمح المؤرخ الأرمني سمباد Smbat إلى حدوث نوع من التفاهم أو التراضي بين الصليبيين عموماً وبين البيزنطيين بدليل وقوف الحاكم البيزنطي كولمان إلى جوار بوهيمند الثالث وتوروس الثاني وريموند الثالث في أحداث معركة حارم، وهو تأكيد لما أورده لِيلِي عن احتمال حدوث صلح بين عموري وبيزنطة، ترتب عليه وقوف البيزنطيين إلى جانب الصليبيين في معركة حارم[٣].

ولكن إذا كان ذلك ما حدث قبل حارم فما هو السبب في المفارقة التي تخالف بعض ما سبق ممثلة في بقاء نبرة العداء لبيزنطة لما بعد معركة حارم، وبخاصة ما يُستَشف في هذا المعنى من خلال خطاب جيوفري فولشر مقدم الداوية في أنطاكية إلى لويس السابع[٤]، مما يُشير إلى بقاء معاداة الصليبيين لبيزنطة سواء علانية كما في رسالة جيوفري فولشر Gaufredi Fulcherii، أم مستتراً كما في رسالتي إيمري بطريرك أنطاكية عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ والملك عموري في ١٢من يناير

---

(1) Magdalino, *Manuel* , pp.72-73.

(2) Lilie, *Byzantium*, pp.187-189.

(3) Smbat, *La Chronique*, (Doc., Arm.II,), p.622.

(4) Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.61-62.

١١٦٥م/٢٧من صفر ٥٦٠هـ في اتجاههما شطر الغرب إلى لويس السابع لا صوب بيزنطة(١).

ومن جهة أخرى لم تكن بيزنطة من جانبها راغبة في أي تضخم لنفوذ الملك عموري في أنطاكية، وقد اتضح هذا المعنى فيما فعله رسل مانويل في أنطاكية في أوائل عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ من إحراجهم للملك عموري حينما سألوه عن سبب وجوده في أنطاكية عقب معركة حارم، وخلال إعداده لشئونها بوصفه مسئولاً عنها خلال مدة أسر بوهيمند الثالث، جرياً على ما اعتاده ملوك بيت المقدس إزاء الإمارات الصليبية، وعند تلك النقطة بدأ التحول التدريجي في علاقة الملك عموري بالإمبراطور مانويل، بحيث أخذ هذا التحول مسارات عديدة بين الثقة وانعدام الثقة وبخاصة من قبل الملك عموري، وهو الأمر الذي يستدعي التعرض لبداية اتصال عموري بالإمبراطورية البيزنطية؛ للوقوف على العوامل التي أدت إلى انتهاج عموري لتلك السياسة، مبرزاً الأسباب التي دعته إلى الاقتراب من بيزنطة مرة أخرى.

لقد استهل عموري عصره بالاتجاه نحو مصر قبل أن يُفكر في أمر آخر – على ما عرض الباحث في الفصل السابق - وقد بدا أنه كان قلقاً أو حذراً خلال حملاته على مصر تجاه السياسة البيزنطية بسبب ما ورثه عموري عن أخيه بلدوين الثالث من توتر علاقة المملكة بالإمبراطورية، وكان من دواعي حدوث ذلك زواج مانويل من مارية أميرة أنطاكية بدلاً من ميليسيند أميرة طرابلس التي سبق ورشحها له بلدوين الثالث بناء على التماس مانويل، وكان زواج مانويل من مارية يعني ازدياد نفوذ الإمبراطورية البيزنطية في أنطاكية، ولذا فقد استغل بلدوين الثالث أسر نورالدين لرينو أمير أنطاكية واستولى على أسوار أنطاكية، وبطبيعة الحال ورث عموري

---

(1) Gaufredi Fulcherii, procuratoris militæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.60-61; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, p.57; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI , p.59; Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62.

سياسة الحذر التي اتبعها أخيه بلدوين الثالث نحو بيزنطة، ولكن يتضح من خطابات عموري حقيقة مهمة وهي أنه لم يستعدي بيزنطة بقدر ما حذر من ازدياد نفوذها في شمال بلاد الشام، وسواء أدرك عموري آنذاك أنه سوف يحتاج إلى بيزنطة في سياسته المصرية أم أنه لم يكن قد قرر بعد هذه المسألة فإنه لم يكن باستطاعته الحيلولة دون استشراء النفوذ البيزنطي في أنطاكية، ولعل ذلك ما دفعه إلى مكاتبة الملك لويس السابع لالتماس مساعدة الغرب ضد بيزنطة(١).

ومما يُؤيد عدم استعداء الملك عموري للإمبراطور مانويل بالمعنى الحقيقي للكلمة هو حقيقة العلاقة التي تربط المملكة اللاتينية بالغرب الأوروبي واعتياد طلب المملكة المساعدة من الغرب وليس من بيزنطة التي ازداد كره الغرب الأوربي لها عقب الادعاءات التي عاد يندد بها أودو دو ويي Odo of Deuil بعد فشل الحملة الصليبية الثانية(٢)، ولذا فلم يكن في مخيلة الملك بلدوين الثالث مثلما لم يسطر واحد من مؤرخي تلك الحقبة أن يُقدّم مانويل مساعدة حقيقية للمملكة، وعليه فإن تغذية عموري خطاباته إلى لويس السابع بدافع خطير، ممثلاً في الإشارة إلى الخطر البيزنطي الذي يتهدد أنطاكية، ربما كان يعني في ظن عموري مس الوتر الحساس لدى الغرب تجاه بيزنطة، بحيث يتحرك لويس السابع إلى الأراضي المقدسة، ولما كانت مشاريع عموري في مصر بلا حدود فإن قدوم مثل تلك المساعدة كان في غاية الأهمية، بيد أن الغرب أبدى السلبية التي ستظل قائمة حتى سقوط مملكة بيت المقدس في أيدي المسلمين، وذلك بسبب العلاقات المعقدة بين ملكي فرنسا وإنجلترا من ناحية، وبين البابوية والإمبراطورية الألمانية من ناحية أخرى، ومن ثم فإن الصليبيين كانوا مضطرين إلى تأييد سياسة مانويل في أنطاكية، على الأقل في شمال بلاد الشام حتى يتسنى لهم كسب دعم مانويل، ما داموا لا يتوقعون قدوم مساعدة قريبة من الغرب(٣)،

---

(1) Baldwin, *The Latin*, pp.553-555.

(٢) انظر في ذلك:

Odo of Deuil, *De Profectione*, pp.55-59, 82-87, 98-100.

وأيضاً: عبد العزيز رمضان: العلاقات البيزنطية اللاتينية، ص٣٩-٥١.

(٣) علية الجنزوري: هجمات الروم البحرية، ص١٤٤.

ومن ناحية أخرى توحي خطابات عموري التي نددت بالخطر البيزنطي-على حد زعم لِيلِي- بما تمتع به مانويل من مكانة في المملكة والإمارات الصليبية، مما أدى إلى ازدياد نفوذ مانويل وإخافته للصليبيين أكثر من المسلمين بقيادة نورالدين(١).

ومن ناحية أخرى فإنه إذا كان عموري حذراً من النفوذ البيزنطي فإنه بسبب جشعه وطمعه كان في حاجة إلى الذهب البيزنطي؛ حيث أكد توجه عموري إلى مصر احتياجه الشديد إلى الأموال الكثيرة بسبب سياسة التدخل العسكري في مصر، ويرتبط بالعامل الأخير عامل آخر وهو رغبة عموري في التحرر من الاضطرابات التي يتعرض لها شمال بلاد الشام من قبل نورالدين، ولأجل ذلك ربما رحب عموري بالحماية البيزنطية على أنطاكية وإلا فإنه لن يكتب النجاح لسياسته الخارجية نحو مصر، ولم يكن مانويل معارضاً لمساندة المملكة على ذلك الأساس، بل ربما تحمس مانويل لتلك السياسة التي لن تؤدي إلى إبعاد طموح عموري عن أنطاكية فحسب وإنما ستعمل أيضاً على خلق فرص جديدة لمغامرات عسكرية مشتركة بين الصليبيين والبيزنطيين، مثلما قد تؤدي إلى إبقاء عموري مديناً للإمبراطور مانويل، وستسمح للإمبراطورية البيزنطية بالمشاركة في توسعات إقليمية جديدة(٢).

هذا عن طبيعة علاقة عموري عقب اعتلائه العرش بالإمبراطورية البيزنطية وأسباب توتر علاقته بها ثم عوامل تحسنها، أما عن بداية الاحتكاك المباشر بين المملكة والإمبراطورية فقد حدث على أثر اضطرار الملك عموري إلى التحرك نحو أنطاكية وقيليقية، عقب تتويجه عام ١١٦٣م/٥٥٨هـ، بسبب اشتعال الحرب بين الأرمن والبيزنطيين، ويعود ذلك إلى اتهام توروس للحاكم البيزنطي إندرونيقوس إيفوربينوس بقتله لأخيه ستيفانوس، هذا على الرغم من توافر العديد من الدوافع لدى توروس الثاني للتخلص من أخيه ستيفانوس، وعليه قامت الحروب الطاحنة بين الأرمن والبيزنطيين التي قُتل من جرائها أعداداً كثيرة من الطرفين، ومن هنا تدخل

(1) Lilie, *Byzantium*, pp.188-189.

(2) Magdalino, *Manuel*, p.73.

الملك عموري لحقن دماء الطرفين وكللت مساعيه السلمية بالنجاح، حينما انتهت حالة العنف مؤقتاً[١].

وقد استغل لِيلِي هذا الموقف في تأكيد سعي عموري إلى التقرب من بيزنطة[٢]، بل إن رنسمان يعد ما قام به عموري مبادرة طيبة بالوقوف إلى جانب الإمبراطور مانويل، ومن ناحية الأخير فإنه حاول جاهداً تهدئة الموقف بعزل إندرونيقوس إيفوربينوس وتولية قنسطنطين كولمان، وبذا هدأت ثائرة الأرمن، الذين انسحبوا بعدها إلى الجبال، ثم حدث موقف آخر قرب من وجهات النظر بين عموري ومانويل نبع عن محاولة كونستانس زوجة رينو السيطرة علي مقاليد الأمور في أنطاكية عقب أسر زوجها، ربما بروح من زواج ابنتها مارية من الإمبراطور مانويل.

ولم يمر ذلك الحادث ببساطة، ذلك أن كونستانس واجهت معارضة شديدة من بارونات أنطاكية، مما دفع كونستانس إلى الاستغاثة بالإمبراطور مانويل، وعندها ترابط البارونات وإيمري بطريرك أنطاكية مع توروس الثاني وتمكنوا من طرد الأميرة من أنطاكية، ولم يكن من الصعب على الأنطاكيين اكتساب مؤازرة الأرمن، لما كان بينهم وبين البيزنطيين من توتر، و قَدَّمَ عموري إلى الإمبراطور مانويل -كما أشار رنسمان - ضمانات كافية بشأن نفي البارونات للأميرة كونستانس، ووعده بعدم التدخل في أنطاكية واحترام سيادته عليها[٣]، بيد أن ما أشار إليه كل من لِيلِي

---

(١) يشير إسحق عبيد إلى صعوبة البحث في المصادر الأرمنية في تلك الفترة؛ بسبب اقتضابها وامتلائها بالقصص الأسطورية التي تتحدث عن توروس بالذات. انظر: إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ٢٠٧-٢٠٨.

وعن صراع المملكة مع الأرمن وتدخل توروس أمير الأرمن في أحداث أنطاكية انظر:

Kinnamos, *Deeds*, p.172; Smbat, *La Chronique*, pp.48-49, (RHC. Doc. Arm. II, pp. 621-622); Samuel de Ani, *Chronographié*, RHC. Doc. Arm., vol. I, p.454; Grégoir Le Prêtre, Chronicle, p.200; Michel Le Syrien, *Chronique*, p.319.

(2) Lilie, *Byzantium*, pp.188-189,192.

(٣) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٥٨٨-٥٨٩.

ورنسمان كان مبكراً على علاقات الملك عموري بالإمبراطور مانويل، وبخاصة أن عموري ظل يبعث برسائل استغاثة إلى الغرب بشأن أنطاكية، وسواء صرّحَ الملك عموري بالخطر البيزنطي أم أنه ألمح إليه فحسب فإن حذره تجاه بيزنطة ظل قائماً حتى حدثت معركة حارم، حينها أيقن أنه لابد من توفير الحماية لظهير المملكة والإمارات حتى لا تتعرض لما حدث في حارم إذا ما تحرك إلى مصر مرة أخرى.

ومن ناحية أخرى لم يكن تدخل مانويل في شئون شمال بلاد الشام وقيليقية مطلقاً عقب ما حققه من نجاح في أنطاكية وقيليقية على حساب رينو وتوروس الثاني عامي ١١٥٨-١١٥٩م/٥٥٣-٥٥٤هـ، حقاً إن توقعات مانويل كانت في محلها بشأن تفضيله الزواج من مارية أميرة أنطاكية[١]، بيد أنه أحجم عن الاستجابة لاستغاثة كونستانس بشأن مساعدتها والثأر لما تعرضت له على يد الأنطاكيين والأرمن، وفي الوقت ذاته عذر مانويل توروس أمير الأرمن فيما قام به ضد القوات البيزنطية في قيليقية؛ لإدراكه أن قادته هم الذين أعطوا الفرصة للأرمن للقيام في وجه الإمبراطورية. لقد أيقن مانويل أن الوقت يعمل في بلاد الشام لصالحه، وأن تزايد الهموم على الإمارات الصليبية والمملكة سوف يجبرها على الاقتراب منه، وعلاوة على ذلك لم يكن مانويل في وضع يسمح له ببدء حرب جديدة في بلاد الشام وقيليقية بسبب انشغاله بحروبه في إيطاليا وبلاد المجر والصرب التي استحوذت على كامل انتباهه[٢].

أياً ما كان الأمر فقد احتوت الدبلوماسية البيزنطية - من جانبها - التوتر الذي بدا من رسائل عموري إلى الغرب فيما يخص علاقة إمارة أنطاكية ومملكة بيت المقدس بالإمبراطورية البيزنطية بمنتهى المهارة، بدا هذا الاحتواء في إحجام مانويل عن الاستجابة إلى استغاثة الأميرة كونستانس به، وذلك على الرغم مما سبق التنويه إليه من الحرص البيزنطي الشديد تجاه أي تضخم لنفوذ أية قوة في أنطاكية، ثم سرعان ما

---

(1) Choniates, *Annales*, pp.65-66; Kinnamos, *Deeds*, pp.154,159.

(2) Kinnamos, *Deeds*, pp.172-173; Choniates, Annals, pp.66-71.See also: Lilie, *Byzantium*, p.188.

قادت الأحداث إلى تفعيل بيزنطة لدورها في أنطاكية خلال أحداث معركة حارم، التي اندلعت بين الصليبيين والأرمن والبيزنطيين وعلى رأسهم بوهيمند الثالث أمير أنطاكية وريموند الثالث أمير طرابلس وتوروس الثاني أمير الأرمن والحاكم البيزنطي لقيليقية قنسطنطين كولمان من جهة، وبين المسلمين وعلى رأسهم نورالدين من جهة أخرى، مما حسّن من الصورة البيزنطية أمام الملك عموري مما يدعو الباحث إلى التعرض لأحداث تلك المعركة بشيء من التفصيل.

إذ تُقرُّ وثائق أنطاكية والمملكة بأن بوهيمند الثالث هو الذي طلب مساعدة الدوق قنسطنطين كولمان[١]، وعلى الرغم من إشارة أبو شامة إلى شدة وطأة البيزنطيين على جيش نورالدين[٢]، فإن جاك دي فيتري يقلل من دور البيزنطيين في أحداث المعركة، بل ويصف البيزنطيين بالجبن والضعف، ممن لا يميلون للحرب[٣]، ويُرجّح محمود عمران حصول كولمان على موافقة الإمبراطور البيزنطي للمشاركة في معركة حارم، ويضيف عمران عن الاستعداد للمعركة ما يفيد بأن القوى الصليبية كانت على علم مسبق بمهاجمة المسلمين لها، ولذا فإن الملك عموري قد أعد هذه القوى سواء كانت صليبية أم بيزنطية التي تصدت للمسلمين في حارم، وذلك قبل رحيل الملك إلى مصر خلال حملته الثانية عليها، ويدلل عمران على ذلك باصطحاب الملك لبعض الفرق البيزنطية حينما ترك قيليقية عقب الفتنة التي أعقبت مقتل ستيفانوس[٤].

بيد أن الباحث لم يعثر على ما يؤيد أن الملك عموري قام باصطحاب أية قوى بيزنطية معه إلى بيت المقدس في المحنة السابقة، سواء للدفاع عن الإمارات الصليبية أم للمشاركة في الهجوم المتوقع على الصليبيين في حارم، وبخاصة أن مثل تلك التدابير لن تغب عن قلم وليم الصوري أو حتى كيناموس، بيد أنهما لم يذكرا -هما وغيرهم- شيئاً عن ذلك، ويبدو أن الرأي الذي يفترض أن عموري اصطحب معه بعض البيزنطيين إلى المملكة يستند إلى مقدمات غير دقيقة، وهي افتراض أن

---

(1) Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62.

(٢) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٥٥٥.

(٣) جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص١٤١.

(٤) محمود عمران: السياسة الشرقية، ص٢٨٤-٢٨٨.

إندرونيقوس إيفوربينوس الذي حكم قيليقية خلال تمرد الأرمن هو إندرونيقوس كومنينوس الذي حكم قيليقية بعد ذلك بعدة سنوات ثم صار إمبراطوراً لبيزنطة فيما بعد، وهذا غير ذاك؛ لأن الأول هو المتسبب في إثارة الأرمن مما أدى إلى تدخل عموري لفض نزاعهم مع البيزنطيين، وقد أقاله الإمبراطور مانويل من منصبه وأحلّ محله قنسطنطين كولمان، وأما إندرونيقوس كومنينوس، فإنه أحل محل كولمان عقب أسر الأخير في معركة حارم عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ وظل إندرونيقوس كومنينوس في قيليقية حتى هزمه الأمير توروس فتحرك صوب المملكة عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ[1].

أما عن علم هذه القوات بأنها ربما تواجه صعوبات في المستقبل فإنه أمر غير دقيق، وبخاصة أن نورالدين لم يُبد أية إشارة أو تحرك للضغط على عموري في مصر في حملته الأولى عليها ١١٦٣م/٥٥٨هـ، كما لم يقم نورالدين بمهاجمة حارم وبانياس خلال أحداث حملة شيركوه الأولى على مصر عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ إلا للضغط على عموري الذي كان يحاصر شيركوه آنذاك في بلبيس، بمعنى أن ما قام به نورالدين في بلاد الشام، في الوقت الذي تواجد فيه عموري في مصر عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ، لم يكن غزواً لشمال بلاد الشام بقدر ما كان ضغطاً على عموري لمغادرة مصر، وقد نجح نورالدين في ذلك؛ لأنه على الرغم من هزيمة نورالدين للصليبيين في معركة حارم فإنه لم يجازف بمهاجمة أنطاكية، وإنما شدّد ضغطه مرة أخرى على المملكة ذاتها في مهاجمته بانياس التي كان صاحبها همفري - الكونستابل الملكي - مصاحباً للملك في مصر، أما عن سبب تحرك نورالدين إلى بانياس ومهاجمته لطبرية، بالرغم من خلو أنطاكية ممن يدافع عنها[2]، فإن نورالدين لم يهاجم أنطاكية وإنما توجه صوب بانياس، وقد أعزى المؤرخون سبب ذلك إلى خوف نورالدين من نفوذ الإمبراطور مانويل؛ إذ كان نورالدين يفضل مجاورة بوهيمند له

---

(١) قارن ما ورد عند: محمود عمران: السياسة الشرقية، ص٢٧٥-٢٨٧.

(٢) ترتب على معركة حارم هزيمة الجيش الصليبي وحلفائه من البيزنطيين والأرمن ووقوع بوهيمند الثالث أمير أنطاكية وريموند الثالث أمير طرابلس والقائد البيزنطي في قيليقية قنسطنطين كولمان في أسر نورالدين، ودُمّر نصف الجيش وأسر نصفه الآخر تقريباً، ثم سقطت حارم ذاتها في يد نورالدين وأصبح نورالدين قاب قوسين أو أدنى من أنطاكية.

على مجاورة الإمبراطور البيزنطي[1].

ويضاف إلى هذا التصور أن الهدف الأساس الذي كان يسعى إليه نورالدين من محاربته للصليبيين مجرد تخفيف الضغط الذي يمارسه عموري على شيركوه في بلبيس، بل إن الوثائق الرسمية للمملكة تشير إلى أن نورالدين جن جنونه وثارت ثائرته حينما علم بتحرك عموري إلى مصر بناء على استدعاء شاور له، ولذا فقد قام بجمع جيوشه ونزل على البقاع، وهو من أعمال طرابلس - وليس أنطاكية - ربما لأن علاقات طرابلس ببيزنطة كانت آنذاك متوترة، وقد راسل نورالدين الأمير بوهيمند الثالث قبل أن تحدث المعركة، وأكد إيمري - بطريرك أنطاكية وراعي شئون المملكة في غياب الملك عموري في مصر - هذه المسلمة في رسالته إلى لويس السابع، وأفصح عن شيء لم يُشر إليه غيره وهو أن نورالدين عرض على بوهيمند الثالث قبل أن تبدأ سلسلة الأحداث التي انتهت بمعركة حارم عدم التعرض له خلال مروره بالمملكة، وأن معركة البقاع - التي انهزم فيها نورالدين أمام الصليبيين وكاد يقتل - لم

---

(1) عن أحداث حارم وبانياس انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٩-٣٥؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٨٧-٩٤، الباهر، ص١١٦-١٣١؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٦-١٧٧؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٣٢-٣٤؛ البنداري: سنا البرق، ص٢٥؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٣٩-٣٦٠، ٤٢١-٤٢٢؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص١٤١-١٤٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٣٥؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣١٤-٣٢٢؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ١، م٤، ص١٣-١٤؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص١٠٠-١٠٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٦٧. راجع أيضاً:

Amalrici, Regis Hierosolymorum, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, p.38; Amalrici, Regis Hierosolymorum, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, p.40; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI pp. 59-60; Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.38-39; Gaufredi Fulcherii, procuratoris militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.62-63; Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62; Kinnamos, *Deeds*, pp.163-165. See also: Rohricht, *Amalrich I*, p.439.

obeikandi.com

تحدث إلا عقب رفض بوهيمند السماح له بذلك[١].

كان رفض الأمير بوهيمند الثالث لعرض نورالدين بمثابة الشرارة التي فجرت المعركة في حارم، وكانت إيحاء مبكراً من نورالدين إلى بوهيمند على ما يعتمل في ذهنه، بحيث استطاع الأخير أن يجمع قواته ويستعين بالأرمن والبيزنطيين في قيليقية لمساعدته في التصدي لنورالدين[٢]، ولما لم يكن في نية الأخير خطة واضحة للاستيلاء على مدينة ما أو تدمير قلعة بعينها وإنما الضغط على عموري في مصر فإنه وقع في الفخ الذي نصبه له الصليبيين في البقاع فهُزم جيشه وتفرقت جموعه وهرب بالكاد من الأسر أو القتل[٣]، وحينما وصلت الأمور إلى هذه المرحلة فإن نورالدين وضع هزيمته مسألة كرامة وقرر توجيه الرد إلى الصليبيين في الحال، فاستدعى الحشود من كافة أرجاء مملكته ومملكة أخيه قطب الدين في المشرق، وتلاقى الجيشان أمام قلعة حارم، وقد حرص نورالدين على استخدام الخطة التي استخدمها شيركوه في معركة البابين - كما سبق وأشار الباحث - وتمكن من هزيمة الصليبيين والبيزنطيين والأرمن في المعركة التي عرفت باسم حارم وذلك في ١٢من أغسطس ١١٦٤م/٢٢من رمضان ٥٥٩هـ.

كان عموري آنذاك يحاصر شيركوه في بلبيس، وعلى الرغم من علمه بما حدث في حارم فإنه لم يستجب لضغط نورالدين على أنطاكية، ولذا فقد قرر الأخير الضغط على عموري مرة أخرى بالإقدام على عمل أكثر خطورة بالنسبة للمملكة وهو مهاجمة بانياس التابعة للمملكة مباشرة، وقد دلل توجه نورالدين إلى بوهيمند الثالث أولاً على علم نورالدين بأن رعاية المملكة كانت موكولة إليه في غياب عموري في مصر، ثم

---

(1) Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62.

(2) Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62.

(3) Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.60-61; Amalrici, Hierosolymorum Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, p.79.

راجع أيضاً: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٨٢-٨٣، الباهر، ص١١٦-١١٧؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٩-٣٠.

دل توجه نورالدين الثاني نحو بانياس على ذكاء واسع، ذلك أن صاحبها همفري دو تورون كان في رفقة الملك عموري في مصر، بما قد يمثل عامل ضغط على عموري للانسحاب من مصر وإدراك بانياس[١]، ولكن لم يكن في وسع عموري أن يترك مصر قبل أن يغادرها شيركوه، ولذا فإن الوضع ظل جامداً في بلبيس حتى حانت لحظة صلح عموري مع شيركوه على أساس ترك مصر معاً.

ويشير الملك عموري في خطابه الذي بعثه إلى لويس السابع من أنطاكية في ١٢من يناير١١٦٥م/٢٧من صفر٥٦٠هـ إلى حدوث خيانة في تبريره استيلاء نورالدين على بانياس، بقبول بعض رجالها رشوة من نورالدين[٢]، ويبدو أن وليم الصوري تأثر بتلك الرواية ونقلها عن رسالة الملك، والراجح أن بانياس لم يكن بها ما يدعو لطول حصار نورالدين لها بحيث لم يكن نورالدين مضطر لاتخاذ ذلك الأسلوب، بل كانت بانياس على العكس من ذلك، خالية من القوة البشرية تقريباً، بسبب توجه حاميتها صوب طبرية عقب انتشار الإشاعة التي روج لها نورالدين بأنه متوجه إلى طبرية وليس بانياس، ولذا فلم تكن بانياس تتوقع معونة عاجلة في ظل تلك الظروف، وخصوصاً بعد تدمير الجيش الصليبي في حارم وغياب الملك عموري وصاحب بانياس في مصر، وبالتالي فإن ما ذكره عموري في خطابه تبرير ضعيف، ولعل ذلك ما جعل وليم الصوري الذي كان في المملكة آنذاك، يشكك في صدق هذا الخبر "وليس بين أيدينا النبأ اليقين عن هذا الأمر إلا ما نعرفه من أن المدينة استسلمت للعدو[٣]". وفي أنطاكية تولى إيمري دفة الإمارة في صرامة، وقد نجح في إدارة شئونها كسالف عهده بها وقت النكبات، بيد أنه هو نفسه صرح بأن الأمر جد خطير وأنه ما لم يقدم لويس السابع لنجدة الإمارة فسوف يستولى عليها الأتراك أو البيزنطيون، وكان أخطر ما تعانيه الإمارة نقص القوة البشرية التي أجهز عليها المسلمون في معركة حارم،

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٥.

(2) Amalrici, Hierosolymorum Regis, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, p.79.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٥.

علاوة على نقص الطعام والسلاح، ولذا فقد بذل البطريرك إيمري جهوداً كبيرة للحيلولة دون استشراء المجاعة(١)، وأشار لامونت إلى أن البيزنطيين عرضوا تقديم العون للإمارة، بيد أن مساعدتهم بدت للصليبيين مثلها مثل هجمات المسلمين(٢)، ولما لم يكن الملك عموري في بلاد الشام فقد راسل البطريرك إيمري الملك لويس السابع(٣).

ولم تأت المساعدة لأنطاكية من بيزنطة وإنما جاءتها من الملك عموري الذي تحمّل أعباء أنطاكية وشمال بلاد الشام، مما جعله يتقابل مع بيزنطة مرة ولكن بشكل غير مباشر، وذلك بمواصلة الملك ممارسة الوصاية على الإمارات الصليبية عقب أسر الكونتات والقادة في طرابلس وأنطاكية "وعلم أن أهالي أنطاكية قد صاروا في موقف يبعث على الأسى، فراحوا يلتمسون منه المعونة ومن ثم فقد نهض بدافع ما يكنّهُ من الشفقة الأخوية والحب الصادق إلى الإسراع إلى أنطاكية المنكوبة؛ ليقدم لها ما هي في حاجة ماسة إليه من العون، واصطحب معه في هذه المرة كونت فلاندرز، يرعاه بعطفه، وما كاد يبلغ أنطاكية حتى أخذ لنفسه صلاحيات أميرها فدبر أمورها في صدق وإخلاص، وبذل لها من عنايته قدراً ربما كان أكبر مما يبذله في العادة تجاه شئونه الخاصة، كما بسط مظلة الرحمة البالغة والحكمة العظيمة على جميع النبلاء والعامة على السواء، فأقام في كل مدينة رجلًا كفؤاً لإدارة دفة جميع الأمور المتعلقة بأملاك الأمير إدارة أمينة دقيقة(٤)".

ومن ناحية أخرى سعى الملك عموري إلى استهلال المفاوضات التي انتهت بإطلاق سراح بوهيمند الثالث، ويرى وليم الصوري أن نورالدين كان معتاداً على الاحتفاظ بما يقع في يده من أسرى الصليبيين، سواء لحرمان الإمارات الصليبية من قادتها أو تأنياً للحصول على مبالغ كبيرة لقاء فك أسرهم، بيد أنه أطلق سراح بوهيمند

---

(1) Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62.

(2) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.195-196.

(3) Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٦.

obeikandl.com

الثالث مباشرة لقاء فدية قدرها مائة ألف دينار، ويعلل وليم الصوري تصرف نورالدين بأحد أمرين: إما خشية نورالدين من طلب مانويل إطلاق سراحه بدون فدية فيضطر إلى فعل ذلك، وإما خشية إحلال أمير آخر أقوى من بوهيمند فيعرقل حرية نورالدين في شمال بلاد الشام(١)، وقد زاد لامونت في تفسيره لهذا الرأي بأن نورالدين كان يخشى أن تؤول الوصاية إلى الملك عموري، مما قد يكون أشد خطراً من بوهيمند قليل الخبرة، خصوصاً عقب امتداد أطماع عموري إلى مصر، وهنا تكمن خطورة وصاية عموري على أنطاكية(٢)، وقد اعترض بلدوين Baldwin على هذا الرأي بحجة أن الملك عموري كان في مصر في ذلك الوقت، ولم يكن أحد يعرف متى سيعود وما إذا كانت الوصاية ستئول إليه أم ستتحرك بيزنطة نحو أنطاكية(٣).

وقد أيدت المصادر العربية ما أقره وليم الصوري من خوف نورالدين من قدوم بيزنطة إلى الشرق إذا لم يطلق سراح بوهيمند الثالث، مفضلاً جيرة الأخير على الإمبراطور، وبخاصة أن نورالدين لم يطلق سراح رينو دو شتيون الذي كان في أسره منذ أربع سنوات وظل كذلك اثنتي عشر عاماً أخرى(٤)، كما ظل نورالدين محتفظاً

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٧.

(2) La Monte, *Feudal Monarchy*, p.196.

(3) Baldwin, *The Latin*, p.551.

(٤) عن أحداث حارم وبانياس انظر:

وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٢٩-٣٥؛ ابن الأثير: الكامل،جـ٩، ص٨٧-٩٤، الباهر، ص١١٦-١٣١؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٦-١٧٧؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٣٢-٣٤؛ البنداري: سنا البرق، ص٢٥؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٣٩-٣٦٠، ٤٢١-٤٢٢؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص١٤١-١٤٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٣٥؛ ابن العديم: زبدة الحلب،جـ٢، ص٣١٤-٣٢٢؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ١، م٤، ص١٣-١٤؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص١٠٠-١٠٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٦٧؛ الذهبي، العبر، جـ٣، ص٢٨-٣٠. راجع أيضاً:

Amalrici, Regis Hierosolymorum, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.37-38; Amalrici, Regis Hierosolymorum, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, p. 40; Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.59-60; Bertrandi De Blankafort, magistri militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF,

بأسره لريموند الثالث حتى عام ١١٧١م/٥٦٦هـ، وكان كل من رينو وريموند ممن أبغضتهم الإمبراطورية البيزنطية مؤخراً، ويضيف ابن العبري وميخائيل السرياني رأياً آخر في أسباب إطلاق نورالدين سراح بوهيمند الثالث، وهو قيام توروس الثاني بالتودد بهداياه إلى نورالدين لإطلاق سراح بوهيمند، فحينما رفض نورالدين عرض توروس قام الأخير بمهاجمة مرعش وأسر أربعمائة مسلماً، ومارس بهم ضغطاً على نورالدين لأجل هذا الغرض[١].

وبينما عاد بوهيمند الثالث إلى أنطاكية ليرتاح كاهل عموري من مسئولية وصايتها فإن طرابلس ظلت بدون أميرها، فتعين على عموري أن يتحمل الوصاية حتى عام ١١٧١م/٥٦٦هـ، ولم يكن الأمر هيناً على عموري في ظل مشروعاته التوسعية الكبرى في مصر. ويلاحظ أنه تدخل في شئون طرابلس كلية، بما يبدو من تأكيده في عام ١١٦٨م/ ٥٦٣-٥٦٤هـ المنحة التي وهبها ريموند الثالث للأمالفيين[٢] كما أصدر عموري عام ١١٧٠م/٥٦٥هـ وثيقة للاسبتارية، يمنحهم بمقتضاها أملاكاً في طرابلس، وضمن لهم موافقة ريموند عليها حينما ينبغي إطلاق سراحه[٣]، وهنا ينبغي الإقرار بأن وصاية عموري جاءت عن طريق القرابة سواء في أنطاكية أم في طرابلس، إذ كان الملك ابن خالتي بوهيمند وريموند، وأقرب فروع الذكور إليهما، وقد توافر شرط غيابهما في الأسر، ولذا فقد كان ترحيب رعايا الإمارتين بالملك امتداداً

---

t. XVI, pp.38-39; Gaufredi Fulcherii, procuratoris militiæ Templi, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, pp.62-63; Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62; Kinnamos, *Deeds*, pp.163-165. See also: Rohricht, *Amalrich I*, p.439.

(١) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٦-١٧٧.راجع أيضاً:

Michel Le Syrien, *Chronique*, III, pp. 380-381.

(2) Rohricht, *Regesta*, no. 380, 433; Rozière, *Cartulaire*, pp.128-130, no.63.

(3) *Cartulaire gènèral de L'ordre des Hospitaliers de S. Jean de Jérusalem, 1100-1310,* (ed.) J. Delaville Le Roulx, 4 vols. (Paris, 1894-1905), Do. no. 467; Rohricht, *Regesta*, no. 519. See also: La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.196-198.

obeikandi.com

لما قاموا به من قبل، مع من سبق عموري من ملوك بيت المقدس[١].

ومما ترتب على معركة حارم أيضاً ما رجحه لِيلِي من تحسن علاقة الإمبراطورية بكل من توروس الأرمني وريموند الثالث بناء على وقوفهما معاً في المعركة، وأما الأهم من ذلك فظهور علامات على احترام نورالدين لقوة مانويل، ويشير لِيلِي إلى أن هذا الاحترام لم يكن بلا أساس، ظهر برد الفعل البيزنطي إزاء أنباء هزيمة البيزنطيين في حارم[٢]، حيث يُقرّ كيناموس أن الإمبراطور أعد نفسه بالفعل للتحرك صوب الشرق، بيد أنه لم يستطع إتمام ذلك، بسبب حروبه في المجر في ذلك الوقت[٣]، وبناء على ذلك بعث مانويل بألكسيوس ابن الدومستق أكسوخ Axouchos بديلاً عنه، في حملة كبيرة إلى قيليقية للتصدي لمحاولات نورالدين للاستيلاء على أنطاكية، ويشير لِيلِي إلى أن نورالدين تراجع على هذا الأساس مردفاً أن بيزنطة أعلنت بذلك عدم سماحها بحدوث أي خلل لنفوذها في شمال بلاد الشام[٤].

وترتب على هزيمة الصليبيين في حارم أيضاً - فيما يخص بيزنطة - أمراً أكثر خطورة، وهو ازدياد نفوذها الديني في أنطاكية في هذه الفترة بالذات، حيث ذهب

---

(1) Baldwin, *The Latin*, p.551.

(2) Lilie, *Byzantium*, p.191.

(٣) انشغل مانويل بالحرب في بلاد المجر حفاظاً على خططه المستقبلية لإنهاء صراع الإمبراطورية مع المجر وذلك تحت مسمى الدفاع عن حقوق بيلا – ألكسيوس أحد أمراء المجر الذي كان مفترضاً آنذاك زواجه من مارية ابنة الإمبراطور مانويل، وأن يكون له حق وراثة العرش سواء في بيزنطة أم في ممتلكاته في بلاد المجر، وبذا تنتهي مشاكل الإمبراطورية مع المجر؛ لأن الأخيرة ستصبح مع الوقت من ضمن أجزاء الإمبراطورية البيزنطية.راجع في ذلك:

Kinnamos, *Deeds*, pp.163-164,172.

وعن حملات مانويل على بلاد المجر راجع:

Lilie, *Byzantium*, pp.190-202; Rohricht, *Amalrich I*, pp.442-443.

انظر أيضاً:ليلى عبد الجواد، "حملات مانويل كومنين على بلاد المجر(١١٥١ – ١١٦٧م) في ضوء كتابات حنا كيناموس"، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، عدد ٣٧، ١٩٩٠م، ص٨٨-٩٩.

(4) Kinnamos, *Deeds*, pp.163-164,172. See also: Lilie, *Byzantium*, pp.190-202, Rohricht, *Amalrich I*, pp.442-443.

بوهيمند الثالث عقب إطلاق سراحه إلي بيزنطة في صيف عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ، لزيارة أخته، ولالتماس بعض مال فديته ولم يعد بوهيمند محملاً بالهدايا فحسب وإنما اصطحب معه بطريرك يوناني لأنطاكية(١)، ولم يُبد الملك عموري شيئاً حيال ذلك، بل إن وليم الصوري ذاته الذي أشار إلى سفارة بوهيمند إلى بيزنطة وما حظي به من ترحيب، قد تجاهل هذه القضية تماماً(٢).

وهكذا عُدّ تدخل بيزنطة في الأحداث الأخيرة - وبهذه الصورة - إنذاراً لكافة القوى للابتعاد عن أنطاكية، بما في ذلك الملك عموري ذاته الذي أحرجه المبعوثون البيزنطيون خلال وجوده في أنطاكية بسؤاله عن سبب وجوده في المدينة، وهنا ينبغي الإقتراب قليلاً من الأحداث، خصوصاً من موقف عموري إزاء أنطاكية؛ لأنه لم يُكَرّرّ في خطابه الذي كتبه في ١٢من يناير١١٦٥/٢٧من صفر٥٦٠هـ، عقب عودته من مصر مباشرة، نغمة عدائه تجاه بيزنطة، بل إنه لم يتحدث إلا عن النكبة التي أحلت بالصليبيين عموماً في حارم وبانياس موافقاً ما سبقه به خطاب البطريرك إيمري(٣).

ولم يكن ذلك يعني سوى شيء واحد وهو حدوث تغير ما في نظرة الملك إلى أنطاكية، وذلك لأن حماية بيزنطة عليها لم تنجح بالصورة التي نجحت بها خلال هذه الآونة، حيث تمكن مانويل وهو في بيزنطة من إنجاز ما عجز عنه هو أو أبيه وجده وهم بجيوشهم أمام المدينة، وذلك بتعيين البطريرك البيزنطي أثناسيوس في أنطاكية بدلاً من نظيره اللاتيني، وهو المطلب الملحّ الذي لم تخل منه معاهدة أو اتفاقية سبق وعقدت بين أمراء أنطاكية وأباطرة بيزنطة التي كان أساسها معاهدة ديفول التي

---

(١) هو أثناسيوس الثالث Athanasius III الذي بقي في أنطاكية حتى موته بسبب الهزة الأرضية التي حدثت عام ١١٧١م/٥٦٧هـ. راجع: حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص١٧٢.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٣٦. وعن رد فعل ألكسندر الثالث انظر:

Jaffé- Lowenfeld, *Regesta*, no.13020.

ويقر رنسمان أن تعيين البطريرك اليوناني في أنطاكية أدى إلى ارتماء الكنيسة اليعقوبية في أحضان اللاتين. انظر: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٠٠-٦٠١

(٣) Amalrici, Regis Hierusalem, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, p.57; Aymerici, patriarchæ Antiocheni, ad Ludovicum, in RHGF, t.XVI, pp.61-62.

عقدها ألكسيوس الأول مع بوهيمند الأول.

وأما عن صمت عموري إزاء اتخاذ أي إجراء حيال هذا الأمر، فإن حقيقة ذلك منوطة بافتراض الباحث استنتاجات تحتمل الصواب أو الخطأ، وبخاصة أن المؤرخين البيزنطيين يعلقون أهمية كبيرة على ذلك الحدث ويعدونه نصراً مهماً لسياسة إمبراطوريتهم، في الوقت الذي تجاهل فيه وليم الصوري هذا الأمر الخطير، خصوصاً أن وليم كان أحد المتخصصين في العلاقات الدبلوماسية البيزنطية، ولم يكن صمته أو تجاهله لهذه الحقيقة نابع عن كونه رجل دين بارز يرى في ذكر ذلك مذلة لوضع كنيسته اللاتينية فحسب، وإنما لكونه من أكثر المشجعين على التحالف مع بيزنطة، ولذا فإنه تعمد إخفاء الحقيقة بحيث لا تبدو بيزنطة بالمعادية لسياسة الكنيسة اللاتينية بما يحطم صورته هو ذاته أمام رؤسائه في الكنيسة - أو اللهم إنه لم يكن يعرف شيئاً كهذا - وبخاصة أنه وصل إلى المملكة بعد رحلة كبيرة في أوربا لطلب العلم عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ، ومن ثم لم يتاح له إدراك أمر كهذا[1].

أما التحول في مسلك عموري فإنه ليس بالأمر الهين، ولا يدري الباحث هل كان ذلك نتيجة للصعوبات الكثيرة التي واجهها الملك عموري في مصر واضطراره للخروج منها عقب الضغط الذي مارسه نورالدين عليه بتحركاته السالفة أم أن عموري رأى أن أحداث حارم أثبتت فشل كل من الصليبيين والبيزنطيين والأرمن في الثبات أمام نورالدين في شمال بلاد الشام، ولذا فإنه كان يتنصل من تحمّل مثل تلك المسئولية، بإلقائها عن عاتقه إلى كاهل الإمبراطور مثلما حدث من قبل مع بقايا الرها،

---

(١) راجع: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ١، ص٥٣،جـ٣، ص٢٢٩، ٣١٨ جـ٤، ص ١٢٨، ومقدمة حسن حبشي لترجمة كتاب وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ١، ص٢٠-٢٥، ٢٧-٣٧.وانظر أيضاً:

Ernoul, *Chronique*, pp.83-86; Eracles, *L’Estoire d’Eracles Empereur et La Conquest de la Terre D’outremer*, in R.H.C.-H.Occ., tome II, (Paris 1859), pp.38-39; Edbury, P.W., "William of Tyre, A Historian of the Crusades and the Kingdom of Jerusalem (1130-1184)", in *Bulletin of the Faculty of Arts in Alexandria University*, (1988), pp.43-52.

obeikandi.com

ومن جهة أخرى يتيح له ذلك أمر مهم للغاية وهو التحالف الدفاعي الذي كان ينشده عموري لشمال بلاد الشام، وبذا يستطيع التحرك كما يحلو له سواء في مصر أم غيرها، ومن جهة ثالثة كان تدخل عموري في شئون أنطاكية - في ظل وجود أميرها بوهيمند الثالث - في أضيق الحدود؛ بسبب ارتكان التدخل المباشر لملوك بيت المقدس في شئون الإمارات الصليبية إلى غياب الأمير أو وفاته، ولأن تعيين البطريرك البيزنطي أثناسيوس في أنطاكية تم بإرادة بوهيمند الحرة وموافقته على ذلك فإن الخيارات المتاحة أمام عموري كانت قليلة.

أما بطريرك أنطاكية اللاتيني فإنه توجه إلى منفاه بعد إعلان احتجاجه وسخطه ووضعه أنطاكية تحت اللعنة، وظل الكهنة البيزنطيون يسيطرون على كنيسة أنطاكية لمدة خمس سنوات تالية، ويُرجّح رنسمان أن الكهنة اللاتين لم يَّطردوا نهائيا من كنيسة أنطاكية؛ لأن الكهنة البيزنطيين شغلوا الوظائف الشاغرة[١]، وجاء رد الفعل البابوي حيال هذا الأمر متأخراً، أبداه البابا ألكسندر الثالث عام ١١٧٨م، أي عقب موت أثناسيوس بطريرك أنطاكية البيزنطي عام ١١٧١م/٥٦٧هـ تحت أنقاض الكنيسة، هنا حذر ألكسندر الثالث الكهنة اللاتين في الإمارة بأن يكونوا يقظين حتى لا يحاول بوهيمند الثالث إعادة تبعية الكنيسة لبيزنطة، وأن يدعموا بطريركهم إيمري الذي طالما عارض النفوذ البيزنطي في كنيسة أنطاكية[٢].

ويُضاف إلى ما سبق أن المساعدة الحقيقية التي كان ينشدها عموري من الدول الغربية والبابوية لم تأته أبداً، على الرغم من رسائله المتكررة إلى الغرب، ولذا فقد صار عموري أمام حقيقة واحدة هي التحول إلى بيزنطة والتخلي عن حذره تجاهها، خصوصاً حيال التحالف الدفاعي الذي سوف تُوفره بيزنطة لشمال بلاد الشام، ولعل

---

(١) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٢٩-٦٣٠.وانظر أيضاً: ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٧.

(٢) انظر في ذلك:

Jaffe-Lowenfeld, *Regesta*, no.13020. See also: Lilie, *Byzantium*, p.191; Baldwin, *The Latin*, p.554; Rohricht, *Amalrich I*, p.442.

أكبر خطوة إيجابية خطاها عموري تجاه بيزنطة هي عزمه على السير على نهج أخيه بلدوين الثالث في طلب عروس بيزنطية لنفسه، وأرسل لأجل ذلك خلال مقامه في أنطاكية عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ بسفارة لهذا الغرض مكونة من هيرنيسيوس Hernesius رئيس أساقفة قيسارية وهيو Eudes دو سانت أماند[1]. ويواجه الباحث في دراسة هذه الإشكالية بعض الغموض في ظل عدم إسهاب المصادر اليونانية واللاتينية في بعض التفاصيل المتعلقة بذلك الموضوع، وما ترتب على ذلك من خلط بعض الأحداث لدى المؤرخين المحدثين عن غير قصد، وأول ما يواجهه الباحث هنا هدف عموري من هذا الزواج؛ بسبب عدم معرفة ما كان في عقله بالضبط حينما أرسل سفارته إلى الإمبراطور.

فمن المفترض ظاهراً أن يسعى عموري إلى عقد تحالف مع الإمبراطور مانويل في ظل الظروف التي تمر بها سياسة المملكة الخارجية، علاوة على أوضاع المملكة السياسية والإمارات من الداخل، ولكن لم تفصح المصادر عن غرض عموري من هذا التحالف، كما كان وضع مصر غامضاً في سفارة عموري إلى بيزنطة عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ، وذلك لأنه إذا كان غرض عموري السير على نهج أخيه بلدوين الثالث في علاقاته ببيزنطة فإن ما طلبه الأخير من بيزنطة مجرد تحالف دفاعي ضد نورالدين في شمال بلاد الشام، وذلك لعدم بزوغ المسألة المصرية في سياسة المملكة في عصر بلدوين الثالث، ومن ناحية أخرى فإنه إذا كان عموري قد طلب مساعدة بيزنطة لأجل الحلف الدفاعي الذي يريده عموري في شمال بلاد الشام، وللاستفادة من بيزنطة في مهاجمة مصر فإن عموري كان في حاجة ماسة لهذا التحالف خلال عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ وذلك لأنه تورط في مصر بالفعل في حملتيه عليها عامي ١١٦٣م/٥٥٨هـ، ١١٦٤م/٥٥٩هـ ولكنه لم يحقق أية نتيجة تذكر بعد، ولذا فقد كان دعم بيزنطة له آنذاك ضرورياً.

بيد أن بيزنطة لم ترد على سفارة الملك عموري إلا بعد عامين، أي في عام

---

[1] وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٩٦-٩٧.

١١٦٧م/٥٦٢هـ، وعندها فقط وردت مسألة إقحام مصر في المباحثات الصليبية البيزنطية الجارية لأول مرة، بينما لم يكن عموري في حاجة إلى المساعدة البيزنطية عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ؛ لأنه حقق الكثير في مصر في حملته التي عاد منها لتوه في ٢١من أغسطس١١٦٧م/٤من ذي القعدة ٥٦٢هـ، ورأى عموري أنه سيكون من العبث مشاركة بيزنطة له في غزو سهل لمصر التي حقق فيها الملك عموري نفوذاً كبيراً هو قمة ما وصلت إليه سياسته الخارجية فيها، ولكن ما يدعو إلى الاستفسار فإنما أسباب استجابة بيزنطة لسفارة عموري - التي بعثها منذ عامين - في عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ تحديداً.

يقدم وليم الصوري الطور الأول للمفاوضات الصليبية البيزنطية حول مسألة طلب عموري الزواج من إحدى أميرات البلاط البيزنطي؛ إذ يحددها وليم ببداية عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ، عندما بعث عموري في طلب عروس من بيزنطة خلال وجوده في أنطاكية في ذلك العام، وقد عاد مبعوثيه بالأميرة البيزنطية تيودورا بعد مفاوضات مطولة استمرت لمدة عامين وحين قدمت العروس في ٢٩ من أغسطس ١١٦٧م/١٢من ذي القعدة ٥٦٢هـ فقد بادر عموري إليها في صور، على الرغم من أنه كان عائداً لتوه من حملته الأخيرة على مصر (في٢١ من أغسطس/٤من ذي القعدة)، وأسرع عموري في إقامة حفلات التتويج وعقد القران في ٢٩من أغسطس/١٢من ذي القعدة، ولكن لم يذكر وليم الصوري شيئاً عن حدوث مفاوضات بشأن مشروع غزو صليبي بيزنطي لمصر خلال هذه الأحداث، بل إنه لم يُشر إلى ذلك المشروع إلا عقب إرسال مانويل لسفارته التالية إلى المملكة في صيف عام ١١٦٨م/أواخر٥٦٣هـ للتباحث في مشروع غزو مشترك لمصر، وعند تلك النقطة فقط أشار وليم الصوري إلى أن المبادرة كانت من الملك عموري الذي بعث بعدة رسائل إلى مانويل يلتمس مساعدته في غزو مصر، وهذا يعني أنه طبقاً لما أورده وليم الصوري لم تُقحم مصر في المباحثات التي صاحبت مفاوضات الزواج التي حدثت ما بين عامي ١١٦٥-١١٦٧م/٥٦٠-٥٦٢هـ[1].

(1) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٩٦-١٠٠.

وينبغي الاطمئنان إلى رواية وليم في هذا الصدد؛ بسبب وجود وليم في المملكة في الفترة التي صحبت بدء مفاوضات الزواج عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ، وسرعان ما أصبح وليم متخصصاً في المفاوضات الصليبية البيزنطية في السنوات التالية بوصفه رسولاً إلى بيزنطة لأول مرة في سبتمبر١١٦٨م/ذي الحجة٥٦٣هـ، ومن ثم فإنه أهل للثقة في هذا الأمر، أما متى بدأ عموري يُقرن زواجه من بيزنطية بمشروعه لغزو مصر بالاشتراك مع بيزنطة فذاك ما غفل وليم الصوري وغيره عن الإشارة إليه، أي أنه لم يكن واضحاً ما إذا كان عموري قد طلب مساعدة بيزنطة في غزو مصر حينما بعث سفارته التي أتته بالعروس البيزنطية أم لا. ولكن لماذا عجّل عموري بالزواج من تيودورا في مدينة صور وليس في بيت المقدس؟ ولماذا استمرت المفاوضات في بيزنطة عامين كاملين؟ ولماذا غيرت بيزنطة من رفضها إلى موافقة عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ؟

فأما سبب تعجل عموري في إتمام مراسيم الزواج في مدينة صور عقب عودته مباشرة من مصر فيرُجح مايرMayer أن لذلك أسباباً تخص كلا الطرفين الصليبي والبيزنطي وهي مرتبطة ببعضها؛ إذ يشير ماير إلى أن عموري كان يحاول أن يُغلق هذا الباب بأقصى سرعة خوفاً من أية مطالب بيزنطية جديدة، خصوصاً أن مفاوضات الزواج استغرقت عامين ولم يكن بوسع عموري إطالة المفاوضات لأكثر من ذلك، ومن ناحية أخرى يُعلق ماير أهمية كبيرة على الربط بين التعجيل بالزواج وبين إيواء عموري للأمير البيزنطي الهارب إندرونيقوس كومنينوس؛ معتبراً تصرف عموري تحدياً لبيزنطة، وأن عموري سعى للتعجيل بالزواج قبل أن تكتشف السفارة المرافقة للعروس مارية بوجود إندرونيقوس في المملكة بسبب إقطاع عموري مدينة بيروت له[١].

([١]) ماير، الحروب الصليبية، جـ١، ص١٧٠-١٧١.

وفيما يخص ما قام به إندرونيقوس - الذي أصبح إمبراطوراً لبيزنطة عقب وفاة مانويل الأول - فإنه ترك ولايته في قيليقية بعد هزيمة توروس الثاني له، ولم يكن إندرونيقوس ممن يميلون للحرب بقدر ميلهم للهو والعبث مع النساء، ولذا فإنه ترك الشئون البيزنطية في حالة انهيار ليمارس الحب مع فيليبا أخت بوهيمند الثالث وأخت الإمبراطورة مارية التي مقتته لذلك، وعليه هرب إندرونيقوس

ويبدو أن ماير يُبالغ قليلاً في شأن إندرونيقوس واستخدام عموري له في وجه الإمبراطور، وبخاصة أن افتراض ماير يقوم على أساس خوف عموري من اكتشاف الحاشية البيزنطية - التي صاحبت مارية - لوجود إندرونيقوس في بيت المقدس، بل وقبل إتمام الزواج بحيث لا تتطور أية مشاكل تمنع حدوثه، ولكن هل كان بإمكان مانويل أن يتدخل لمنع الزواج بعد وصول الأميرة البيزنطية إلى الشرق أم أنها كانت محاولة من مانويل للضغط على عموري من جانبه للحصول على اتفاق جيد؟ وهل كان باستطاعة عموري أن يقوم في أسبوع واحد فقط وهي المدة التي تقع بين عودته من مصر وزواجه، بالاستراحة من عناء حملته الكبيرة على مصر ١١٦٧م/٥٦٢هـ ومراجعة كافة شئون المملكة في غيابه والإعداد لإتمام مراسم زواجه، بحيث يتفرغ لإندرونيقوس ويستخدمه ضد الإمبراطور؟

ولكن ما يدفع الباحث إلى عدم رفض افتراض ماير كلية هو أن إقطاع الملك بيروت لإندرونيقوس لم يكن أمراً عادياً وبخاصة في ظل شدة احتياج الملك للمال في دعم تحركاته العسكرية، علاوة على عدم تسليم عموري إندرونيقوس للرسل البيزنطيين الذين جاءوا للقبض عليه، وقد عللت بعض المصادر فشل ذلك بوقوع الرسالة التي حملت أوامر مانويل بالقبض على إندرونيقوس في يد عشيقته تيودورا التي أتاحت له فرصة الهرب من المملكة، بيد أن ذلك لم يكن ليغيب عن عموري،

بأموال الضرائب التي جمعها من قيليقية وجزيرة قبرص إلى المملكة ومارس الحب مرة أخرى في بيت المقدس مع ابنة عمه تيودورا، أرملة الملك الراحل بلدوين الثالث، بينما كان عموري في مصر آنذاك، وحينما عاد عموري إلى المملكة رحب به وأقطعه بيروت، ثم هرب اندرونيقوس ومعه تيودورا عقب علمه بمطالبة مانويل بالقبض عليه، حيث لجأ إلى دمشق لدى نورالدين ثم تحرك بها إلى بغداد وربوع الشرق وأنجب منها أطفالا كثيرين، وعبثاً حاول مانويل القبض عليه. انظر في ذلك:

وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٩٦-٩٧. وأيضاً:

Kinnamos, *Deeds*, pp.175,177-187; Choniates, *Annales*, pp.78-81; Ernoul, *Chronique*, pp.15-16. See also: Lilie, *Byzantium*, pp.194-196; Mayer, *Das Pontifikale Von Tyrus*, pp.155-156.

راجع أيضاً: إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص٢١١.

وبخاصة إذا كان يرى ثمة استفادة قد تأتي من وراء التمسك بإندرونيقوس، وأياً ما حدث فإن المفاوضات الصليبية البيزنطية ظلت جارية، بل إنها تقدمت سريعاً ولم يُعلّق أحد على رحيل إندرونيقوس عن المملكة(١).

ويفترض مجدالينو أن السبب الذي أدى إلى طول المفاوضات هو مناقشة المسألة الأنطاكية، بل ويرجح امتداد النقاش إلى بيت المقدس بحيث يُقال أن عموري أقسم يمين الولاء لمبعوثي مانويل خلال إجراءات الزفاف في صور مثلما فعل بلدوين الثالث من قبل عام ١١٥٨م/٥٥٤هـ(٢)، بيد أن لِيلِي يعترض على أن ذلك وإن كان توقعاً لما سوف يحدث في بيزنطة بعدئذ عام١١٧١م/٥٦٦هـ خلال زيارة عموري لها، فإنه لم يكن بالموضوع الذي يُطيل المفاوضات، وبخاصة أن مركز عموري كان سيئاً عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ، ومن ثم فإنه لم يكن ليتراجع عن مفاوضاته مع بيزنطة وهي في بدايتها، وسيكون عموري أول الراغبين في الانتفاع من نتائجها لتحسين وضعه(٣)، بمعنى آخر كان عموري يرغب في الحصول على اتفاق عام١١٦٥م/٥٦٠هـ أكثر مما كان يرغب فيه مانويل؛ وذلك بخلاف ما حدث من تحسن واضح في وضع عموري عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ، حينما حقق مكاسب كبيرة في مصر.

وأما عن سبب تغَيّر مانويل لرأيه عام ٥٦٢/١١٦٧هـ فتكمن الإجابة في سياسة الإمبراطور الإيطالية؛ إذ كانت جهود بيزنطة متجهة أساساً إلى منع انتشار النفوذ الألماني في إيطاليا منذ عام ١١٦٠م/٥٥٥هـ، ولأجل ذلك تشكل ائتلافاً من الإمبراطورية البيزنطية والنورمان والمدن اللمباردية والبندقية والبابا ألكسندر الثالث

---

(١) انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٩٦-٩٧.وانظر أيضاً:
Kinnamos, *Deeds*, pp.175,177-187; Choniates, *Annales*, pp.78-81; Ernoul, *Chronique*, pp.15-16. See also: Lilie, *Byzantium*, pp.194-196.
راجع أيضاً: إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص٢١١؛ رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦١٠-٦١١؛ ليلى عبد الجواد، حملات مانويل كومنين على بلاد المجر، ص٨٠-٨١.

(٢) Magdalino, *Manuel*, p.74.

(٣) Lilie, *Byzantium*, pp.192-196.

obeikandi.com

وفرنسا، وبعيداً عن التفاصيل كاد فردريك برباروسا يحقق انتصاراً تاماً على هذا الائتلاف عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ، حينما تمكن من احتلال روما خلال صراعه مع البابا ألكسندر الثالث في صيف العام ذاته، ولكن لم تسر معه الأمور على هذا النحو طويلاً، فسرعان ما استشرى مرضاً في جنوده في أغسطس ١١٦٧م/ذي القعدة ٥٦٢هـ قضى على جانب كبير من جيشه، وهنا يُرجّح استجابة مانويل لطلب عموري الزواج من أميرة بيزنطية بوصفه إجراء يزيد من هيبة مانويل لكونه مدعماً للدول الصليبية ومُقدماً بيزنطة كإمبراطورية حقيقية يُمثّل حاكمها إمبراطوراً أوحداً في الشرق والغرب على حد سواء، وهو الهدف من مفاوضات مانويل مع البابا ألكسندر الثالث، وعليه فإن الدعم البيزنطي للمملكة الصليبية في حربها ضد المسلمين ربما يكون محاولة رائعة من جانب مانويل لتقديم نفسه في صورة حسنة للغرب في الوقت الذي تحارب فيه الإمبراطورية الألمانية كنيسة روما ودول الغرب على حد سواء.

ويُرجح أيضاً رغبة مانويل في ممارسة نفوذاً أكبر على الفرنسيين وهكذا يحفظ للبابا مكانته البارزة، وذلك من خلال تحالفه مع الصليبيين، مما يقدم بيزنطة بوصفها حامية للقضية الصليبية، وهو عامل له أهميته في الفكر الإمبراطوري في العصور الوسطى، وهنا وافق مانويل أخيراً على طلب زواج عموري وأعلن اهتمامه بالتحالف ضد مصر - كما أسلف الباحث - وهذا ما يفسر سر إشارة كيناموس وخونياتس إلى أن بيزنطة هي المنظمة للمشروع، كما يوضح سبب وضعهما بداية مفاوضات غزو مصر عامي ١١٦٨-١١٦٩م/٥٦٤-٥٦٥هـ، حيث كانت بيزنطة آنذاك هي العامل المحدد والمشرف على المشروع، كما يرجح في هذا الصدد جهلهما بحدوث تقارب بين المملكة والإمبراطورية في وقت مبكر عن ذلك[1].

أياً ما حدث فقد تم الزفاف في ٢٩من أغسطس ١١٦٧م/١٢من ذي القعدة٥٦٢هـ في صور، مخالفاً بذلك أعراف الملوك اللاتين الذين درجوا على

([1]) لمزيد من التفاصيل انظر:

Kinnamos, *Deeds*, p.208; Choniates, *Annales*, p.91. See also: Lilie, *Byzantium*, pp.192-196, 197, 310-311.

الاحتفال بزفافهم في مدينة بيت المقدس، وبالرغم من حضور وليم الصوري للحفل فإنه لم يكن كريماً في وصف ما جاءت به العروس، مثلما فعل في وصفه لمهر تيودورا زوجة بلدوين الثالث، ويُرجّح الباحث حصول مارية - من عمها الإمبراطور - على مهر لم يكن يقل بحال عن مهر تيودورا، ولاريب أنه سبّب شيئاً من الارتياح للملك عموري الذي كان يعاني من حرج مالي مزمن، وفي المقابل تسلمت مارية مدينة نابلس بائنة لها[١].

وعلى الرغم من مصاحبة سفارة رفيعة المستوى للملكة الجديدة لإتمام مراسيم الزواج والمكونة من "علية القوم وكبار الأشراف ممن تربطهم به هو ذاته[٢] وشيجة القربى، وكان فيهم المبجل باليولوجس والسري الأمجد مانويل سباستيوس أحد ذوي قرباه وكثيرون غيرهم[٣] " فإنه لم يحدث أي مما يتعلق بما يحدث في مصر، أو إشارة إلى عمل مشترك ضدها، بيد أنه يمكن ترجيح حدوث ذلك الاتصال في أي وقت لاحق؛ لأن وليم الصوري جعل ذلك الأمر مفتوحاً ولم يربطه عموماً بمسألة الزواج "ويقول البعض - وهذا أمر كبير الاحتمال - أن الملك كان هو البادئ في التفكير في اقتراحه هذا الموضوع (أي غزو مصر) وعرضه على الإمبراطور على أيدي رسل أنفذهم إليه برسائل ألح فيها أن يسعفه من لدنه بالعسكر وبالأسطول والمال اللازم لإنجاز هذا الأمر[٤]"، ولكن متى كان ذلك؟

لم يحدد وليم الصوري وقت ذلك الاتصال، ومن ناحية أخرى جعلت المصادر اليونانية الإمبراطورية البيزنطية هي من استهل مفاوضات غزو مصر، ولكنهما - كيناموس وخونياتس - يجعلان هذا الاتصال متأخراً في عامي ١١٦٨-

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٩٥-٩٦. انظر أيضاً:
Rohricht, *Regesta*, no.433; Roziere, *Cartulaire*, p.128-130, no.63. See also: Rohricht, *Amalrich I*, pp.435-436; Magdalino, *Manuel*, p.74; Lilie, *Byzantium*, p.196; Mayer, *Das Pontifikale Von Tyrus*, pp.155-160.

(٢) أي مانويل.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٩٩.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٩٩-١٠٠.

obeikandi.com

١١٦٩م/٥٦٤-٥٦٥هـ، والواضح أنهما لم يكونا على علم بالمفاوضات التي استهلها عموري في بداية عام ١١٦٥م/منتصف٥٦٠هـ تقريباً، بيد أن كلاً من كيناموس وخونياتس يقدمان مظهراً مهماً من مظاهر اهتمام مانويل بمصر، حيث يجعلان منها أرضاً كانت في يوم ما تابعة للإمبراطورية وأنه لابد من استعادتها[1].

والواقع أن الاعتماد على ما أقره كيناموس وخونياتس صعب بسبب ضعف روايتيهما، وعليه فإن الباحث أمام حقيقة أن عموري هو الذي استهل مفاوضات غزو مصر وبخاصة أنه كان في حالة صدام مباشر معها أو مع من ينافسونه عليها منذ سبتمبر١١٦٣م/شوال ٥٥٨هـ وحتى ٢١من أغسطس ١١٦٧م/١٢من ذي القعدة٥٦٢هـ، ويبدو أيضاً أن السفارة التي صاحبت مارية أصبحت على علم بتطور أحداث المنطقة، بما في ذلك التقدم الذي حققه عموري في مصر في أغسطس١١٦٧م /ذي القعدة ٥٦٢هـ وأنها نقلت ذلك إلى الإمبراطور مانويل، وربما كان ذلك السبب في إرسال مانويل سفارة أخرى إلى المملكة، أعقبت الزفاف بأربعة أشهر فقط، مكونة من ألكسندر أوف جرافينا وميخائيل أوف أوترانتو ومعهما شروط معاهدة إمبراطورية لغزو ثنائي لمصر.

وقبل أن يعرض الباحث ما وصلت إليه المفاوضات التالية ينبغي الانتباه إلى أن توجه مانويل إلى مصر في تلك الفترة كان يعني تغييراً في اتجاه سياسته التوسعية التي كانت متجهة فيما سبق نحو إيطاليا وبلاد المجر والصرب، مما يعني حدوث تغير ما جعل مانويل يحول انتباهه نحو الشرق اللاتيني في هذا الوقت تحديداً، ويبدو أن السفارة التي صاحبت مارية لم تحمل أي تفويض من قبل الإمبراطور للخوض في المسألة المصرية، حيث لم يكن أمام مانويل أي اتجاه محدد تجاهها، وإلا فإن تقديم سفارته الثانية لأية عروض محددة ربما يكون أمراً مبهماً، وهذا يعني أن مانويل اتخذ القرار عقب عودة السفارة الأولى إلى بيزنطة وبناء على ما جاءت به من مصر من تحقيق عموري لنوع من الوصاية على مصر في بداية عام ١١٦٧م/ منتصف

---

(1) انظر: Kinnamos, *Deeds*, p.208; Choniates, *Annales*, p.91.

٥٦٢هـ، وبدا للعيان سهولة غزوها مرة أخرى وبذا يستطيع مانويل إذا ما شارك في هذا الغزو أن يحقق نجاحاً كبيراً بجهد أقل، ومما يُفسر أيضاً اتجاه مانويل إلى غزو مصر بعد عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ تحقيقه انتصاراً كبيراً على المجريين في ٨ من يوليو١١٦٧م/١٩من رمضان ٥٦٢هـ، وعقده معهم هدنة بعد قليل[١]، وهكذا أصبح مانويل أكثر حرية في سياسته بحيث يستطيع المغامرة الآن بقواته في مشروعات أكثر بعداً.

وقد حملت سفارة مانويل الثانية إلى عموري خطاباً فحواه "لقد لاحظ الإمبراطور أن مملكة مصر التي ظلت حتى هذا اللحظة الحاضرة قوية وبلداً فاحش الثراء قد وقعت في أيدي جنس ضعيف ألف الاسترخاء، كما أن الشعوب المجاورة لها هي الأخرى لم يفتها ما كان عليه حاكم مصر وأمراؤه من الوهن وعدم الكفاءة، مما يشير بوضوح إلى أنه يستحيل على هذه المملكة أن تستمر طويلاً فيما هي عليه الآن، وأنه لابد أن تؤول حكومتها أو الإشراف عليها إلى غيرها من الأمم وأن الإمبراطور مؤمن بأنه باستطاعته بمساعدة الملك أن يضمها إليه[٢]".

ويتضح من نص رسالة مانويل إلى الملك عموري أنه يُبدي جهله بأي معرفة عن تجارب عموري السابقة في مصر، وربما كان ذلك مقصوداً بحيث لا تظهر مطامعه في مصر علانية، بيد أن الرسالة تمس الجرح الذي لم يندمل بعد في جسد المملكة من جراء ما يمكن أن يترتب على ضياع مصر من أيدي الصليبيين، لكنها تُوحي بمشروعات وخطط بيزنطية كبيرة في مصر، وعلى أية حال عرضت السفارة المساعدة في غزو مصر بالمال والرجال مقابل اقتسامها ومناصفة غنائمها.

ولم يبدُ عموري مستعداً للرد على سفارة مانويل في وقتها، وربما لم يكن متحمساً لما جاءت به وذلك لأسلوب المماطلة الذي اتبعه في مناقشة شروط الإمبراطور وإبقائه للسفارة بطرابلس لأطول فترة ممكنة بحجة اصطحابها لسفارة

---

(1) Dolger, *Regesta*, no.1475. See also: Lilie, *Byzantium*, p.199.

وكذلك: ليلي عبد الجواد: حملات مانويل، ص٨١-٩٠.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص٩٩.

صليبية من لدنه، وضع على رأسها وليم الصوري، وكان غرضها مناقشة الإمبراطور فيما وصل إليه الملك بشأن المساعدة البيزنطية وشروط المملكة في المعاهدة المتوقعة(١). وهنا يتساءل الباحث: إذا كان عموري يرغب بحق في المساعدة البيزنطية التي تعني مشاركة أكبر أسطول بحري في شرق البحر المتوسط في الحملة المزمعة، فلماذا يضطر إلى عقد تحالف مع بيزا في ذلك الوقت؟ لأن الأسطول البيزي لا يُغني ولا يُسمن من جوع مقارنة بالأسطول البيزنطي، والأمر الآخر وهو الهدف الحقيقي من التساؤل وهو لماذا تحرك عموري إلى مصر قبل عودة وليم ببنود المعاهدة الصليبية البيزنطية؟ وإذا كان عموري يخطط لغزو مصر بمفرده - أو ينوي الغدر ببيزنطة - فلماذا استمر في المفاوضات الجارية معها؟

لقد تحرك وليم الصوري في سبتمبر١١٦٨م/ذي الحجة٥٦٣هـ على رأس السفارة التي خولها الملك عموري صفة إتمام الصيغة النهائية للمعاهدة مع الإمبراطور، وقد لاقت سفارة وليم نجاحاً كبيراً، إذ قابل الإمبراطور في بلاد الصرب خلال حربه لها بسبب تمردها على حكمه، وقد وافق الإمبراطور على الصيغة النهائية التي اقترحها عموري دون نقاش أو تروي، وعاد وليم الصوري محملاً بالهدايا في الأول من أكتوبر١١٦٨م/٢٧من ذي الحجة ٥٦٣ وهو يظن أنه يحمل أجمل خبر ممكن أن يُسعد الملك عموري، وهذا يعني أن وليم الصوري لم يكن على علم بما يدور في ذهن الملك، حتى بعد عودته من هذه السفارة، بل لم يُر وليم الصوري يوجه انتقاداً حاداً لملك مثلما وجه للملك عموري خلال هذه الحملة بالذات، وهي الحملة التي تحرك بها عموري قبل انتظار عودة وليم بالمعاهدة الصليبية البيزنطية(٢).

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٠٠-١٠٢.

(٢) انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٠١-١٠٢. وانظر أيضاً:

Richard, *Le Royaume Latin*, p.53; Lilie, *Byzantium*, p.199; Baldwin, *The Latin*, p.555; Schlumberger, *Campagnes*, p.184.

وأيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦١٢؛ علية الجنزوري: هجمات الروم، ص١٤٥-١٤٦؛ محمود عمران: السياسة الشرقية، ص٢٩٧-٣٠٠؛ إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص٢٩٩-٢٣٠.

وقبل استعراض وجهات النظر المختلفة التي حاولت تحليل أسباب تحرك الملك عموري في هذه الحملة بدون انتظار المساعدة البيزنطية، فإنه ينبغي الإشارة إلى أن رواية وليم الصوري كانت مليئة بالمرارة التي تتخفى وراء تحليلات هو ذاته يشكك في صحتها، وهذا يعني أنه كان أمام أمرين: إما أنه يعرف الحقيقة ولكنه مضطر إلى إخفائها وتحميّله المسئولية لأشخاص بعينهم، مع التلميح الحذر إلى ذلك كلما اتيحت له الفرصة، أم أنه لم يكن حقاً يدري بما يدور في ذهن الملك وأن الأخير استخدمه في تنفيذ معاهدة مع بيزنطة لم يكن ينوي انتظارها أو الاستفادة منها، وأن وليم الصوري لم يكن يعلم ذلك، ولذا فقد ظهرت مرارته في تحليله لأسباب تحرك الملك مع التشكيك في بعض الأحداث التي تؤدي إلى تحمُّل عموري مسئولية فشل الحملة في النهاية.

ومن جهة أخرى أبرزت الرواية العربية التي حاولت تفسير تحرك الملك عموري إلى مصر وجهين مختلفين لسبب تحرك عموري إلى مصر؛ أولهما يقوم على أساس ضعف شخصية الملك واستجابته لباروناته في التوجه إلى مصر، والوجه الآخر عكسه، يُبرز الملك وقد رغب في ذلك المشروع نتيجة عدة عوامل ستذكر فيما بعد، وقد اهتمت المصادر الإسلامية التي أرخت لهذه الفترة بتقديم تعليل مناسب ومعالجة شاملة لأسباب الحملة وأحداثها ونتائجها، وربما يكمن ذلك في أنها كانت حملة مصيرية، تقرر عليها أيلولة مصر إلى إحدى الجبهتين، علاوة على أنها تحركت هذه المرة بناء على دافع داخلي في المملكة وليس لتلبية استغاثة أو مساعدة حليف، ويبدو أيضا أن هذا الاتجاه هو الذي جعل بارونات المملكة ينقسمون على أنفسهم بين مؤيد لها ومعارض، خوفاً من النتيجة ومن اتخاذهم روح المبادرة.

فأول ما وجهه وليم من نقد إلى سياسة عموري ما أبداه من شك حول الدواعي التي حرّكتُه إلى مصر بينما ما زالت مفاوضاته مع بيزنطة جارية لأجل هذه الحملة، فبينما يُشير مثل غيره من المؤرخين المسلمين إلى انتشار إشاعة تفيد بمراسلة شاور

ويرجح إسحق عبيد أن الملك عموري بعث بوليم الصوري إلى بيزنطة؛ لأنه لم يكن راضياً عن الشروط التي بعث بها مانويل مع مبعوثيه، ولذا فإنه قرر من جانبه إرسال وليم الصوري للتفاوض مع الإمبراطور للحصول على شروط أفضل.

لنورالدين رغبة في خرق اتفاقه مع عموري والتخلي عن التزاماته المالية تجاهه، فإنه عاد يُشكّكُ في صحة هذه الإشاعة معللاً تمسك شاور باتفاقه مع الملك ومؤيداً لبراءة ساحته من الافتراءات التي نُسِبت إليه، وقد أيده آخرون في المملكة في رأيه، في أن السبب السابق ما هو إلا ذريعة يدافع عنها ذوي المصالح ممن يطمعون في مصر، وقد وجّه وليم نقداً لاذعاً إلى جيلبرت دي أسالي مقدم الإسبتارية في بيت المقدس الذي غذى رغبة الجشع في امتلاك مصر لدى الملك عموري وحرّضه على خرق اتفاقه معها ومهاجمتها، وكان لدى جيلبرت من الدواعي الملحة التي وجهته إلى سلوك ذلك الأسلوب؛ فمن أجل تطوير جماعته وإعدادها اقترض أموالا كثيرة "وبهذا تراكمت الديون على طائفته تراكماً أثقل كاهلها حتى لم تعُد هناك أي إمكانية في إقالتها من عثرتها، والنهوض من كبوتها، فحمله الناس على التنحي عن وظيفته في رياسة الاسبتارية، فخلّفها مثقلة بديون تبلغ مائة ألف قطعة ذهبية، ويقال إنه صرف كل تلك المبالغ الضخمة على أساس تفاهمه مع الملك على أن تصبح بلبيس... بكل ما حولها من الأراضي ملكاً دائماً لهذه المنظمة، وذلك حين يتم للملك فتح مصر وإخضاعها[١]".

ولم يكن اتهام وليم الصوري لجيلبرت دي أسالي مجرد خطابة بلاغية، لأن الوثائق التي أصدرها الملك لطائفة الاسبتارية تؤيد حجم المسئولية التي التزم بها جيلبرت من تقديم خدمات عسكرية كبيرة للملك، مقابل إقطاعات ومصادر دخل كبيرة في عشرة مدن مصرية ناهيك عن تملكهم بلبيس كلية[٢]، ومن ناحية أخرى كان

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٠٣.وعن سياسة جيلبرت دي أسالي المالية ومشاكله التالية مع أعضاء فرقته انظر:

Rohricht, *Regesta*, no.452; *Cartulaire* general de L'order des Hospitaliers, no.391,527.

وعن حرمانه من شرف رئاسة جماعته انظر:

Rohricht, *Regesta*, no.480.See also: Herquet, *Chronologie der Grossmeister des Hospitalordens*, (Berlin, 1880), pp.8-11; King, *Hospitallers*, pp.93-94 .

(٢) وعن نص الوثيقة التي أصدرها الملك عموري للاسبتارية انظر ترجمتها الإنجليزية لدى:

King, *Hospitallers*, pp.99-100.

وعن المدن المصرية المذكورة في منحة عموري للاسبتارية في ١١من اكتوبر١١٦٨م انظر أيضاً:

لموقف الداوية من تحاشي المشاركة في الحملة يحمل في طياته غيرة من كون مقدم الطائفة المنافسة هو المخطط للمشروع وصاحب أكبر وعود بالامتيازات في مصر في المستقبل، علاوة على عامل أخلاقي يتمثل في رفضهم مهاجمة دولة حليفة، بيد أن سياسة المصالح كان لها رأي آخر، وذلك لأن تمسك الداوية بعدم المشاركة بسبب علاقاتهم التجارية الواسعة بالتجار الإيطاليين الذين يمارسون أنشطة اقتصادية ضخمة في مصر أكثر مما يقومون به في بلاد الشام، ولأجل ذلك خشي الداوية هذه المرة خسارة علاقتهم بالتجار الإيطاليين وبخاصة أنه ليس ثمة داعية في هذه الحملة يستدعي التدخل في شئون مصر[١].

وعلى الرغم من تكتم وليم الصوري وكمّ المرارة الحارقة التي تقطر من كلماته فإنه لم يبعد في تفسيره عما سبق، وإن كان من الممكن الحصول على تفسير آخر أكثر شمولاً بمطالعة مصادر أخرى تعرضت لتحليل أسباب الحملة ودوافعها، وكان منها ما أكد تشكيك وليم الصوري في مراسلات شاور لنور الدين، وذلك باعتراف الملك عموري ذاته لرسول شاور بأنه تحرك إليهم تحت ضغط باروناته وبعض الفرسان الغربيين من رجال وليم الرابع كونت نيفر، وأنه لم يأت إلا للتوسط بينهم وبين المصريين[٢].

وتظهر بعض المصادر العربية وجهاً لمعارضة عموري لتحريض نبلائه له على هذه الحملة، فالنبلاء يرون أن مصر بلد ضعيف، يسهل اختراقه؛ لأنها بلد بلا جيش علاوة على كثرة ثرواتها، وتأكد لهم ذلك باطلاعهم عليها وعلمهم بمواطن قوتها وضعفها، علاوة على مساندة بعض العناصر المصرية الساخطة على حكم شاور للفرنجة ومراسلتهم في القدوم إلى مصر والسيطرة عليها، وكان من بين هذه العناصر علم الملك بن النحاس وابن قرجلة وابن الخياط، وهي من العناصر السياسة المشاغبة

Rohricht, *Regesta*, no. 452. See also: King, *Hospitallers*, p.100; Delaville Le Roulx, *Les Hospitaliers en Terre Sainte*, p.71, note.1.

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٠٣. وانظر أيضاً:

King, *Hospitallers*, pp.93-94.

(2) Fabri, *The book of Wandering*, p.329.

في مصر منذ وزارة ضرغام[1]، وكان لدى هؤلاء ذرائع في تحريضهم لعموري على غزو مصر، لعل أهمها خروج يحي بن الخياط على شاور ومطالبته بالوزارة عام ١١٦٧-١١٦٨م/ ٥٦٣هـ، وقد أجبره شاور على الفرار فلجئ وغيره إلى المملكة وحرضوا ملكها على مهاجمة مصر[2]، ولا ريب أن شاور أساء إلى المصريين في وزارته الثانية بحيث خلق جبهة كبيرة معادية له ولسياسته نتيجة استعانته بالصليبيين[3].

وقد أكدت الحامية الصليبية القائمة على أبواب القاهرة وأسوارها وقلعتها منذ ١١٦٧م/٥٦٢هـ ملائمة الفرصة لقيام عموري بغزو مصر، وبعثوا رسائلهم التي حملت إليه هذا المعنى[4]، ولا ريب أن هذه المعلومات قوت من مبررات البارونات، بيد أن عموري ظل متمسكاً بموقفه؛ حرصاً على عدم خسارة مصر التي تبعث بأموالها إلى المملكة، وتُبقي على معاهدتها التي تضمن عدم اقتراب نورالدين منها، ولا شك في أن مهاجمة مصر -الآن- تعطي المصريين سبباً قوياً للارتماء في أحضان نورالدين، ولكن يبدو أن الملك رضخ للضغط الموجّه له وقرر القيام بالحملة- على حد إشارة ابن الأثير[5].

وقد أقر رنسمان هذا الرأي حينما أقر أن البارونات ضغطوا على عموري وأقنعوه بكافة الوسائل للتخلي عن محاذيره إزاء مهاجمة مصر[6]، على حين رأى آخرون أن مصر لا تقبل القسمة بين الصليبيين والبيزنطيين، ومن ثم فإن انتظار المساعدة البيزنطية يعني وجود جار قوي يُخشى بوائقه[7].

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٥٨.

(2) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٣١.

(3) البنداري: سنا البرق، ص٣٩؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٩، الباهر، ص١٣٨؛ عمارة اليمني، النكت العصرية، ص١٢٩-١٣٢؛ المقريزي: الخطط ،جـ٢، ص٤٨.

(4) ابن الأثير: الباهر، ص١٣٧.

(5) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٩، الباهر، ص١٣٧؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٨١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٤٤٥.

(6) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦١٣.

(7) أنتوني بروج: الحروب الصليبية، ص١٧٣. وأيضاً:

وتسائل روهرشت عن سبب تحرك الملك عموري مرجحاً نشأة الدافع لدى عموري من رغبته في إرضاء مانويل وعن سياسة تفرضها المعاهدة المعقودة بينهما[١]، بيد أن هذا الرأي - الذي يؤيد ضغط البارونات على عموري - يُظهر الأخير عاجزاً إلى أقصى درجة، وبخاصة أن عموري لم يكن بهذا الضعف، خصوصاً أن المصادر الإسلامية لم تصف عموري بالمكر والخبث إلا في هذه الحملة، وهذا ما يقود الباحث إلى رؤية أخرى انطلاقاً من معالجة تفاصيل الأحداث ذاتها وترابطها مع بعضها. وفي البداية يتساءل الباحث: إذا كان عموري قد اضُطر إلى التحرك نحو مصر في أكتوبر ١١٦٨م/ذي الحجة٥٦٣ - محرم٥٦٤هـ تحت ضغط باروناته، فما الذي أجبره على مكافأة المشاركين معه في الحملة ببذل الاقطاعات الواسعة في مصر حينما يتم الاستيلاء عليها؟ ولماذا تحالف الملك مع البيازنة للاستفادة من أسطولهم في الحملة المقبلة؟

يبدو أن الملك عموري كان يفكر في غزو مصر وتحرك لتحقيق ذلك وبكامل إرادته، بيد أنه لم يرغب في الاستفادة من المساعدة البيزنطية التي جاءت متأخرة، ويتضح ذلك من تحالفه مع بيزا، وقد جاء الضغط من بيت المقدس للحصول على ذلك التحالف الذي رغب فيه عموري، وهنا تبرز حقيقة بليغة وهي أن أهمية بيزا تكمن في الأسطول الذي باستطاعتها إعداده بالجند، ولو أن عموري يُقدّر تحالفه مع بيزنطة جدياً فإن تحالفه مع بيزا في ١٨من مايو ١١٦٨م/٨من شعبان ٥٦٣هـ قد يبدو سخيفا[٢]، لأن الأسطول البيزنطي كان كفيلاً بسد احتياجات عموري، ولن يكون ثمة ضرورة لمشاركة بيزا، وذلك لأن البيازنة - مثلهم مثل البيزنطيين - سوف يُطالبون بحصة في الغنيمة وبذا سيقل نصيب المملكة، وبالرغم من صغر الأسطول البيزي فإنه شارك في حملة عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ، مما يُظهر اهتمام عموري بالتحرك المشترك

Baldwin, *The Latin*, p.555; Richard, *Le Royaume Latin*, p.53; Chalandon, *Les Comnenes*, (New York, 1960), II, p.538.

(1) Rohricht, *Amalrich I*, pp.456-457.

(2) Rohricht, *Regesta*, no. 449; Muller, *Documenti*, p.14, no. 11.

مع بيزا في غزو مصر(١).

ومن ناحية أخرى فإنه إذا كان تحرك عموري إلى مصر عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ قد حدث بناء على ضغوط البارونات فإنه سيصعب إيجاد تفسير لقيامه - في بداية ذلك العام - بعقد معاهدة مع بيزا ثم تأكيدها في العام التالي بمنح الامتيازات، وذلك أنه لكي يحصل هو وحلفائه الجدد على الجنود اللازمين لغزو مصر فإنه منح حلفائه العديد من الإقطاعات المشروطة بالاستيلاء عليها، وكانت بلبيس أكثر هذه المدن أهمية والتي تقرر منحها للاسبتارية، ويشير ابن أبي طي في هذا الصدد إلى توجه الملك لإقناع باروناته ورجال المملكة للموافقة على الحملة، وأنه واجهته معوقات خلال المناقشة ولكنه أقنعهم في النهاية بأهمية المشروع وكفل تمويل الحملة بمنح الإقطاعات، وقد استفاد إلى حد كبير من البيانات التي أرسلها رجال حاميته في القاهرة عن مقدار ما تُدّره الإقطاعات المصرية وأهميتها في توزيعه لها على باروناته(٢).

وتشير تواريخ الوثائق التي تحمل نصوص الامتيازات إلى أنها صدرت في الوقت الذي كانت مفاوضات المملكة مع بيزنطة ما تزال قائمة؛ حيث صدرت وثيقة الإسبتارية في ١١من أكتوبر ١١٦٨م/٨ من محرم ٥٦٤هـ التي تمنح الاسبتارية ١٥٠ألف بيزنت من المدن المصرية مقابل المشاركة بألف رجل في الحملة(٣)، ووثيقة امتيازات رئيس دير جوزيفات Josaphat وتعده بمبلغ ١٥٠٠بيزنت من دخل مصر، وأخرى في ١٣من أغسطس ١١٦٨م/٨ من ذي القعدة٥٦٣هـ، عبارة عن منحة في مصر من أجل باجنوس Paganus في حيفا(٤)، ثم تحرك عموري إلى مصر في ٢٠ من أكتوبر/١٧من محرم ٥٦٤هـ، وهكذا حدث توزيع الاقطاعات في وقت قريب من امتيازات الاسبتارية وفي الوقت ذاته كان وليم الصوري يتفاوض مع الإمبراطور

---

(1) Rohricht, *Regesta*, 449,453; Maragone, *Annales*, p.45, note. I; Muller, *Documenti*, p.14, no. 11. See also: Lilie, *Byzantium*, p.311, note.7,8.

(٢) انظر رواية ابن أبي طي لدى: أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٢٩؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٩١؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ١، م٤، ص١٩.

(3) Rohricht, *Regesta*, no.452.

(4) Rohricht, *Regesta*, no.465.

مانويل لأجل إقرار بنود المعاهدة المقترحة لغزو مصر، وعند هذه النقطة وفي ضوء معاهدة عموري مع البيازنة يتضح الخط السياسي الذي يتبعه الملك، ولأجل ذلك وافقه البارونات في المحكمة العليا كما أشار ابن أبي طي[1].

لقد رغب عموري في غزو مصر ولكن بدون بيزنطة، بسبب رفضه لفكرة إقامة البيزنطيين في مصر؛ إذ أصبح الوضع البيزنطي في الدول الصليبية الآن قوي دون الحاجة إلى وجودهم في مصر، مما يظهر من تأدية بوهيمند الثالث يمين الولاء لمانويل عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ، وإقامة البطريرك البيزنطي في أنطاكية، كما أصبح النفوذ البيزنطي قوياً في مملكة بيت المقدس بشكل لافت للنظر، فإذا ما حدث وأقامت بيزنطة في مصر فإنها سوف تُهدّد بتطويق الصليبيين، وبناء عليه كانت مشكلة عموري تتمثل في منع وجود مثل تلك القوة العسكرية في مصر ولكن كيف، وإذا كانت هذه نيته فلماذا تحالف معها؟

يجيب على تلك الأسئلة تصرفات عموري المبكرة؛ إذ عرض عموري على بيزنطة التحالف عام ١١٦٥م/٥٦٠هـ ولم يقبل مانويل هذا العرض إلا في عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ وأكد ذلك بالموافقة على زواج التحالف، ولاريب أن عموري وافق على العروض البيزنطية ولكن بدون سعادة أو ترحيب، إذ بدا قبل عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ أن المساعدة البيزنطية كانت ضرورية لإتمام غزو مصر، وبخاصة أنه واجهته مشاكل كثيرة خلال حملاته عليها، سواء في مصر أم في بلاد الشام نتيجة لعجز موارده البشرية والاقتصادية، ولكن يبدو أن النجاح الكبير الذي حققه في مصر عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ قد أقنعه أنه بإمكانه غزوها بقواته الخاصة، وبالتعاون مع الأسطول البيزي الذي سيكون في قبضته بسبب صغر حجمه، إضافة إلى ما زينته له الحامية التي تركها في مصر عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ، بأن الفرصة سانحة لغزو مصر وحثهم له على الإسراع في القدوم إليها.

علاوة على أن التعاون مع بيزنطة - في ظل تلك الظروف - سوف يضع مملكة بيت المقدس في حالة تبعية أكبر لها، وبمعزل عن ذلك فإن الفائدة المرجوة من غزو

---

[1] انظر رواية ابن أبي طي لدى: أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٢٩.

مصر سوف تنخفض، وبخاصة أنه توجد خطورة في نظرة بيزنطة إلى المدن الساحلية المصرية وخصوصاً دمياط[1]، هذا هو الوجه المشرق، أما الوجه المظلم فيتمثل في عجز عموري عن التنازل بهذه السهولة عن طلبه التحالف مع الإمبراطور أو الاعتذار عنه، لا لأن ذلك سوف يُثيّر سخطه فقط وإنما سيصعب فهم ذلك الأمر في الغرب، كما أنه يُعرّض التحالف الدفاعي مع بيزنطة في شمال بلاد الشام وقيليقية - الذي أمّنَ ظهير المملكة - للتهديد، وسيكون من الاستحالة اتخاذ أية خطوات مهمة في مصر، كما أنه يُسيء إلى موقف الإمارات الصليبية عموماً.

وتؤكد هذه الإشارة أن مملكة بيت المقدس هي التي نظمت عرض التحالف الهجومي، ولو أن بيزنطة هي التي عرضت مشروع غزو مصر عامي ١١٦٧-١١٦٨م/٥٦٢-٥٦٤هـ، فإنه سيكون من السهل انسحاب عموري بأي عذر، أما لو أن مملكة بيت المقدس هي التي نظمت خطة التحالف فإن انسحابها سيكون صعباً، كما أن حملة عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ تشير إلى أن عموري كان مندهشاً من استجابة مانويل للعرض الذي كان مفاجأة لعموري وعليه فإنه قرر البدء في حملته قبل أوانها[2].

وفي مثل هذا الموقف اضُطر عموري لاستعادة المفاوضات مع بيزنطة وإطالتها، بينما سعى في الوقت ذاته إلى غزو مصر بمفرده، فإذا نجحت محاولته، فإنه ربما يحقق حالة توازن ستسمح له بالخروج من المأزق الراهن بامتنان، ومن ناحية أخرى لن يتعرض التحالف الدفاعي مع بيزنطة للخطر، وذلك لأن عموري سيتخلى عن التحالف الهجومي الذي لم يرغب فيه قبل أن يحدث، ثم عرض على البارونات - الذين لم يتحدوا في دعم خططه - وعوداً بالإقطاعات الضخمة كإغراء لهم، كما أمّن الدعم الملاحي اللازم لحملته بتحالفه المشار إليه مع بيزا، ثم كانت الخطوة الأخيرة

---

(١) عن المعاهدة المعقودة بين عموري ومانويل انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٦-١١٧.وأيضاً:

Kinnamos, *Deeds*, p.209; Choniates, *Annales*, pp.91-93.

(٢) انظر:

Lilie, *Byzantium*, p.314, note.16.

ممثلة في عدم تردده في خرق معاهداته المبرمة مع شاور[١].

وبينما كان وليم الصوري يستعد للعودة بمعاهدته مع مانويل في الأول من أكتوبر١١٦٨م/آخر ذي الحجة ٥٦٣هـ، كان عموري هو الآخر يُعدّ عدته للتحرك صوب مصر، والواضح أنه كان عليه الإسراع في الخروج بحملته إلى مصر قبل وصول وليم الصوري فيورطه في تنفيذ بنود الاتفاق الذي عقده وليم مع مانويل، قاصداً تفويت الفرصة على الأخير في مشاركته في الاستيلاء على مصر وقبل أن يضع عموري نفسه في موقف لا يحسد عليه، ولذا فقد "جمع خيالته وفرسانه من كل نواحي المملكة وغادرها على جناح السرعة إلى مصر[٢]" ، وبينما توجه هو براً، أمر بتحرك الأسطول بحراً، بحيث يستفيد من قوته البحرية، كما تحركت معه بعض العناصر المصرية الساخطة على حكم شاور التي لجأت مؤخراً إلى عموري ومنهم ابن قرجلة ويحيى بن الخياط وعلم الملك بن النحاس، ولم تكن الرحلة طويلة؛ إذ وصل عموري مصر بعد عشرة أيام من تحركه من عسقلان في ٢٠من أكتوبر/منتصف المحرم إلى بلبيس حيث استولى عليها في ٣من نوفمبر ١١٦٨م /غرة صفر٥٦٤هـ.

وصل خبر دخول عموري مصر إلى شاور على تلك الصورة، في مسافة ما بين الداروم وبلبيس، ولكن قبل دخول الملك بلبيس، حيث حاول عموري شراء بدران رسول شاور حتى يخفي على الأخير أخبار جيش عموري ونيته، ولم تخف هذه الخدعة على شاور، فأرسل إلى عموري شمس الخلافة رسولاً آخر إليه، يستفسر عن سبب قدومه، ولم يكن عموري بارعاً في الكذب؛ إذ أفصح عن قيامه بهذه الحملة نزولاً على رغبة الأمراء الغربيين الجدد وباروناته، وأنه لم يأت إلى مصر إلا ليتوسط بينهم

---

(1) Lilie, *Byzantium*, pp.199, 313 -314.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٠٢.

كان نورالدين مشغولاً آنذاك بمشاكل في الجزء الشمالي الشرقي من مملكته، علاوة على انشغاله بعدئذ في الاستيلاء على قلعة جعبر. انظر في ذلك:

ابن شداد: النوادر، ص٢٥؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ١، م٤، ص٢٢-٢٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٧، ص١٤٨؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص١١٣؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٨٠-١٨١.

obeikandi.com

وبين شاور، ويُشير مصدر آخر إلى أن عموري حينما رحل إلى الداروم بعث يخبر شاور بقدومه لخدمته، فرد عليه شاور بأنه لم يستدعه وأن المعاهدة التي بينهما لا تسمح بحضوره إلا حينما يستدعيه شاور وفي وجود أعداء خطرين يهددونه مثلما حدث مع شيركوه في الحملات السابقة(١).

وأياً ما كان الأمر فإن عموري طالب بمبلغ ألفي ألف دينار ترضية لباروناته حتى يرحل عن مصر وتوجه بعد حديثه مع شمس الخلافة إلى مدينة بلبيس التي طالما التقى بها من قبل سواء مناصراً أم معادياً، وعلى الرغم من عدم حدوث أي شيء غير عادي، أو تصرف أحمق سواء من قبل شاور أم نورالدين أم أحد المصريين في بلبيس فإن عموري قام بتشديد هجومه على المدينة، وحينما استولى عليها في ٣من نوفمبر/غرة صفر أحدث بها ورجاله مذبحة مهولة في السكان لتهويل المسلمين، وأسر أعداداً كبيرة وحصل على غنائم وفيرة، ولم يُنكر وليم الصوري حدوث مثل تلك المذبحة، بل إنه لام الملك على تصرفه الأحمق بحيث لم يحدث شيء يستدعى هذه التصرفات(٢).

وقد أعزى الملك سبب ذلك إلى رفض الكامل بن شاور -الذي أرسله أبوه للدفاع عن بلبيس هو وبعض رجاله- تسليم المدينة إليه، وأنه بعث يستفز عموري بأنه لن يحصل عليها إلا على أسنّة الرماح، وبرّر آخرون هذا التصرف على أساس قيام جنود الحملة وبخاصة الجدد من حديثي الوصول إلى الشرق من رجال وليم الرابع كونت نيفر الذي مات محموماً في بيت المقدس بحيث كان رجاله الذين رافقوا حملة عموري تواقين مثل غيرهم من حديثي العهد ببلاد الشام لقتل بعض المسلمين، وأن الملك لم يستطع السيطرة على تصرفات باقي الجيش، ويبدو أن الملك حاول أن يُخفّفّ من حدّة ما حدث فقام بإطلاق سراح نصف الأسرى ممن وقع في سهمه(٣).

---

(١) البنداري: سنا البرق، ص٣٩-٤٠؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٩١-٢٩٢؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٣٠-٤٣١.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٠٣-١٠٤؛ البنداري: سنا البرق، ص٣٩-٤٠؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص١٩١-١٩٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٦، ص٣٥٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٤٤٦.

(٣) راجع في ذلك: أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٣١؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣،

ولكن هل كان عموري رافضاً لحدوث مثل تلك الفوضى في بلبيس؟ لاريب أن تصرفه غامض إلى حد كبير، بخاصة أنه لم يفعل ذلك في حملته الأولى على المدينة ذاتها، بل إنه لم يفعل ذلك خلال حصاره وشاور لشيركوه وصلاح الدين بها عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ، ومن ناحية أخرى فإنه من غير المنطقي التسليم بأن الملك أراد بذلك القضاء على سكان المدينة بالكامل وتسويتها بالأرض، بحيث إذا تقدم إليها نورالدين لم يجد ما يحتمي به في تلك المنطقة أو يلجأ إليه.

والواقع أن ما أحدثه عموري في بلبيس - سواء برضائه أو عدم رضائه - كان بمثابة إنذار مبدئي بفشل حملته، وذلك لأن المصريين كانوا بالفعل ناقمين على حكومة شاور، وكانوا يرون مثل ابن النحاس وابن الخياط وغيرهم أن عموري ربما يحررهم من بطش شاور، ولكن ما أحدثه في بلبيس غيّر نظرة المصريين إليه وكان له انعكاس حاد على نفسيتهم، وجعلهم يفكرون ملياً فيما يمكن أن يؤول إليه حالهم إذا ما واجههم عموري في مدينة أخرى، و بدت ردة الفعل تلك في موقف أهالي القاهرة من عموري "فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلبيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه، وبذلوا جهدهم في حفظه، ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس لملكوا مصر والقاهرة سرعة، ولكن الله تعالى حسّن لهم ذلك ليقضي الله أمراً كان مفعولاً[١]" وحينما تقدم عموري إلى القاهرة "داخل الناس منه رعبُ شديد وخوف عظيم، فاجتمعوا بالقاهرة ووطّنوا أنفسهم على الموت، وكان هذا من لطف الله، فإنه لو قدّر أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس لكان الناس لا يدفعونهم عن القاهرة ألبته؛ لما في قلوبهم من كراهة شاور[٢]".

ولكن إذا كان ما حدث في بلبيس تصرفاً متهوراً من قبل الملك وجيشه، فلماذا لم يظهر هذا التهور في تحرك الملك من بلبيس إلى القاهرة؟ لقد قطع الملك في عشرة

ص٢٩٣-٢٩٥.وأيضاً:

Ernoul, *Chronique*, p.20. See also: Schlumberger, *Campagnes*, pp.196, 313.

وأيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦١٥.

(١) ابن الأثير: الباهر، ص١٣٨. وأيضاً: أبو شامة: الروضتين،جـ١، ق٢، ص٣٩٠.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٩٦.

obeikandi.com

أيام ما يمكن أن يقطعه في يوم واحد أو يومين، وبذا أضاع فرصة الهجوم المباغت على القاهرة والفسطاط، وعدم إتاحة الفرصة لشاور لطلب أية مساعدة داخلية كانت أم خارجية، بل إن شاور استغلها لتحصين مدينة مصر وبناء سور حولها لم يستطع إتمامه[1]، كما بدأ في جمع المؤن والجنود من سائر أنحاء مصر[2]، ويقدم وليم الصوري تبريراً استقاه من معاصريه عن سبب إرجاء الملك لزحفه على القاهرة، وهو يرتكن إلى جشع الملك ونهمه للمال، بمعنى أن الملك كان "يُفضّل أن يأخذ رشوه كبيرة فينسحب بدلاً من أن يدع هذه المدينة نهباً لعصابات قومه كما حدث في بلبيس"، ويُظهر هذا الرأي وكأن عموري رجلاً أخلاقياً لم يكن راضياً عما حدث في بلبيس أو أنه تم رغماً عنه.

ومن جهة أخرى فإن تغذية شاور لملكة الجشع لدى الملك تعني أن الأخير تناسى أي هدف لحملته في مقابل المال وهو أمر ضعيف، وذلك لأن الحملة كانت تهدف إلى ما هو أبعد من المال الذي كان يأتي إلى الملك في بيت المقدس، وهنا وبناء على الهدف المالي حاول وليم الصوري إخراج الملك من هذا المأزق بتبرير ضعيف، ربما لم يكن هو نفسه مقتنع به؛ إذ حمّل وليم الصوري ميلو دي بلانسي تبعة إقناع الملك بالحصول على المال من شاور والتقاعس عن إتمام الحملة، وفي هذه الحالة سيكون المال من نصيب الملك وحده، ولن يشاركه فيه البارونات، طالما أن الجيش عجز عن الاستيلاء على مصر ونهب ثرواتها التي ستكون آنذاك غنيمة توزع على كل الجيش بالتساوي، ولكن وكما يبدو من رواية وليم الصوري أن دور ميلو دي بلانسي لم يأت إلا بعد إدراك الملك أن الاستيلاء على مصر أصبح غاية في الصعوبة خصوصاً عقب فشل الأسطول في دخول فرع دمياط؛ إذ كان عموري يخطط لاستخدامه في إحكام السيطرة على القاهرة عن طريق فرع دمياط، واقترن فشل الأسطول بتوافد إشاعات مفادها اقتراب جيش شيركوه، وقيام شاور بإحراق الفسطاط،

---

(1) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣٩٦.

(2) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٠٨.

حتى يمنع عموري من مهاجمة القاهرة، وهنا كان عموري على استعداد للاقتناع بالمال[١].

ولكن إذا كانت المصادر الإسلامية تُقرّ بأن التفاوض بين عموري وشاور بشأن المال قد بدأ قبل الاستيلاء على بلبيس حينما طلب عموري ألفي ألف دينار في مفاوضاته مع شمس الخلافة ثمناً لباروناته ولفرسان الغرب في جيشه حتى يرحلوا، وأنها كانت مماطلة من عموري حتى لا يخلق موقفاً عدائياً قبل أن يتمكن من مصر، وبخاصة أنه كان يتفاوض في المنطقة التي تبدأ بالداروم وتنتهي ببلبيس، وربما كانت المفاوضات مع شمس الخلافة في الداروم ذاتها، وفي هذه الحالة فإنه يتعين التعامل بحذر مع رواية وليم الصوري الذي لم يكن مشاركاً في الحملة، بل كان متغيباً عن المملكة في تلك الفترة، ومن ناحية أخرى كان وليم الصوري ناقماً على الحملة من الأساس ولم ير محركاً لها سوى جشع الملك وطمعه وأنانيته[٢].

لقد كان بإمكان عموري إذا ما تحرك إلى القاهرة بسرعة أن يحقق بعض النجاح على حساب شاور ونورالدين بعد ذلك، ولكنه كان بطيئاً في زحفه نحو القاهرة للغاية، وتبرز المصادر الإسلامية دوراً ماكراً لشاور عن طريق مبعوثه شمس الخلافة خلال تحركه إلى القاهرة، وذلك لمساومة الملك على المبلغ الذي سبق وطلبه، وفي الوقت ذاته كان يحثه على عدم الاقتراب من القاهرة، فنزل عموري إلى بركة الحبش[٣] التي تبعد عن القاهرة مقدار فرسخين[٤]، وقام شاور آنذاك بإحراق الفسطاط

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٠٥-١٠٧.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٠٥-١١٠.

(٣) بركة الحبش هي أرض في وهدة من الأرض واسعة، طولها ميل تقريباً، وتشرف على النيل ويوجد خلف القرافة وقف على الأشراف تزرع *"فتكون نزهة خضرة لزكاء أرضها واستفالها واستضحائها وريها وهي من أجل متنزهات مصر رأيتها وليست ببركة للماء وإنما شبهت بها وكانت تعرف ببركة المعافر وبركة حمير وعندها بساتين تعرف بالحبش والبركة منسوبة إليها"* . وبركة الحبش أيضاً مزرعة نزهة قرب منطقة القرافة بمدينة مصر. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٠١، جـ ٢، ص ٢١٣.

(٤) البنداري: سنا البرق ، ص٣٩-٤٠؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٣٢-٤٣٣؛ ابن الفرات: تاريخه، م٤،جـ١، ص٢٤-٢٥.

لإعاقة عموري عنها؛ إذ قام في١١من نوفمبر ١١٦٨/٩من صفر٥٦٤هـ بإحراق مدينة مصر، وهي الفسطاط أو بابليون، التي كانت مركزاً وعاصمة لمصر قبل أن تسلبها القاهرة هذه المكانة في العصر الفاطمي(١)، فرحّلَ شاور أهلها عنها إلى القاهرة ثم أحرقها ليمنع استيلاء الفرنجة عليها ومن التقدم نحو القاهرة(٢).

وينبغي التوقف قليلاً عند حادثة إحراق شاور لمدينة الفسطاط؛ إذ يُعلّق معظم المؤرخين المعاصرين ومن صار على نهجهم من المحدثين كثيراً على هذا الحريق، ويربطون بين قيام شاور به وبين السبب الدفاعي الذي يهدف إلى منع استيلاء عموري عليها وإعاقة تقدمه إلى القاهرة بعدئذ، ولكن الفسطاط كانت أكبر في سكانها من بلبيس، كما كانت القاهرة مزودة بقوات عسكرية معقولة، ولكن يبدو أن ما حدث في بلبيس أفزع المصريين وجعل تصرفات شاور غير منطقية(٣)، وقد تعرض الباحث الأثري كوبياك Kubiak لهذه الفرضية بمناقشة قيّمة، استفاد خلالها من دراساته الأثرية عن المنطقة في الوقت الراهن ومن مطالعاته للمؤلفات التاريخية، وهو باختصار يُشكّك كثيراً في التهويل الذي تقدمه رواية المقريزي(٤)، وبخاصة أن المصادر التي نقل عنها المقريزي لم تُبالغ إلى الحد الذي وصل إليه هو ذاته، إضافة

---

(١) وعن بابليون التي أصبحت الفسطاط في بداية استقرار المسلمين في مصر انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، ص٣٠١، ٢٦٤؛ جـ٥، ص١٣٧-١٣٨، ١٤٠، ٤٥٣ .وعن كيمان الفسطاط في العصر الحالي انظر عنها في الدراسات الأثرية:

Kubiak, "The Burning of Misr al- Fustat in 1168, A Reconsideration of Historical Evidence", in *Africana Bulletin*, (Warsaw, 1976), pp.51-64.

وقد امتدت أنقاض مدينة الفسطاط على مساحة كبيرة تقع في المنطقة الجنوبية لجامع ابن طولون وما يحيط به، وتمتد إلى شرق القاهرة القديمة بين ضواحي المقابر الجنوبية وأحيائها المعروفة بمقابر الإمام الشافعي والإمام الليثي.انظر:

Kubiak, *Burning of Misr*, p.51.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٩، الباهر، ص١٣٨؛ عمارة اليمني، النكت العصرية، ص٨٨-٨٩؛ ابن الوردي: تاريخه، جـ٢، ص١١٥؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ١، م٤، ص٢٤.

(3) Yaacov Lev, *Saladin*, pp.60-61.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣٩٦-٣٩٧؛ المقريزي: الخطط، جـ١، ص٩٣٤-٩٣٥.

إلى حدوث عدة نكبات كان لها أثرها الخطير على المدينة قبل إحراق شاور لها في نوفمبر ١١٦٨م/صفر ٥٦٤هـ مثل تعرض المدينة للشدة العظمى المستنصرية التي استمرت سبع سنوات، وتعرض القاهرة للإحراق في وزارة شاور أيضاً قبل هذه المرة عدة مرات في صراعه مع التركمان والأكراد.

وتُرجّح الدراسات الأثرية أن المدينة لم تحترق بالكامل، بناء على استمرار بعض المراكز التجارية في ممارسة نشاطها قرب النيل، وعدم احتراق بعض الجوامع الكبيرة مثل جامع ابن طولون وغيره، وبقاء بعض الأسر اليهودية في بيوتها داخل الفسطاط ذاتها، بما يظهر من بعض وثائق الجنيزة المتبادلة بين بعض الأسر المقيمة في الفسطاط وذويهم في أماكن أخرى، ثم حديث بعض المصادر المعاصرة عن عودة أهل الفسطاط إليها بشكل سريع واستعادة المدينة لبهائها بعد فترة وجيزة في عصر صلاح الدين(١)، وبناء على ذلك وعلى شواهد أخرى كثيرة تضمنتها دراسة كوبياك فإن الباحث يؤيده في أن المقريزي بالغ في إبراز صورة الحريق بهذا الشكل المروع(٢).

ومما يؤيد رأي كوبياك أن حريق الفسطاط لم يؤد الغرض الذي حدث لأجله، إذ لم يمتنع عموري عن التقدم نحو القاهرة، وإذا كان عموري قد حُرم من الاستيلاء على الفسطاط فالواضح أنه نأى بنفسه عن النيران التي بها، أياً كان حجمها، وعن الكيمان المهجورة منذ الشدة العظمى المستنصرية، ولكن ذلك لم يمنعه عن التقدم صوب القاهرة؛ إذ لم يهزمه شاور بذلك الحريق، بل إن عموري قاد كتائبه وفرسانه، ونصب آلاته ومناجيقه، واستطاع بمحاولاته الجادة إزعاج شاور الذي ضجر من عنف الحصار وطوله(٣).

---

(١) البنداري: سنا البرق، ص٤٠؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٦٧.

(2) Kubiak, *Burning of Misr*, pp.51-64.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٠٠، الباهر، ص١٣٨؛ البنداري: سنا البرق، ص٢٩؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ١، م٤، ص٢٤-٢٥.

وقد بدأت عمليات الحصار في ١٢من نوفمبر/١٠من صفر، بينما لم يكن شيركوه قد خرج من دمشق حتى الأول من ديسمبر ١١٦٨م/ ٢٩من صفر٥٦٤هـ وهذا في حد ذاته يعني أنه كان على شاور أن يتحمل وحده مواجهة جيش عموري ما يقارب شهر تقريباً، ولذا فإنه قرر أن يمارس لعبته القديمة في التودد إلى عموري ومماطلته بالأموال التي حملها له، ومطالبته بالابتعاد عن القاهرة بحيث لا يُزعج الأهالي وذلك ريثما يصل شيركوه[١]، ومما يُرجح المبالغة في موضوع الحريق إغفال وليم الصوري الإشارة إليه، وبخاصة أنه كان ذريعة قوية لمليكه عموري، في تبرير سبب فشله في الاستيلاء على مصر، بل على العكس راح وليم الصوري يُندّد بآثار مذبحة بلبيس على سلوك المصريين الذين رفضوا التهاون في مقاومة عموري، بحيث لا يتسنى له أن يُكرر ما قام به في بلبيس[٢].

على أية حال هاجم عموري القاهرة بينما هاجم أسطوله مدينة تنيس[٣] على ساحل البحر المتوسط وأخربها واستولى على ما بها من غنائم وأسر أهلها، بيد أنه عجز عن الدخول إلى فرع دمياط في طريقهِ منه إلى القاهرة ؛ بسبب إعاقة المصريين له بقواربهم، ويبدو أن عموري كان قلقاً على عدم إتمام الحصار، وبخاصة من ناحية النهر، ولذا فإنه بعث بقوة حربية بقيادة همفري الكونستابل الملكي وصاحب تورون Toron، للتصدي للمصريين والسماح للأسطول بالمرور[٤]، بيد أنه ما كاد يتحرك

---

(١) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٣٣-٤٣٤.

(٢) البنداري: سنا البرق، ص٤٠؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٩٦؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٢٩-٣٠؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٢٦. انظر أيضاً:

Fabri, *The book of Wandering*, p.329; Ernoul, *Chronique*, p.20. See also: Baldwin, *The Latin*, p.555; Rohricht, Amalrich, I, pp.461-462; Schlumberger, *Campagnes*, pp.196, 313.

(٣) تنيس بحيرة على ساحل البحر المتوسط على ما وصفها بنيامين التطيلي الذي زار مصر في تلك الفترة بالذات، وبينها وبين دمياط ما يقارب مسيرة يوم واحد، وقد ألمح إلى تبعيتها لنفوذ مصر وأن بها أربعين يهودياً. انظر:

Benjamin of Tudela, *Itinerary*, p.78.

(٤) وفي مناسبة فشل الأسطول في العبور إلى القاهرة عن طريق النيل علق على ذلك ياكوف ليف

همفري بفرقته ويحقق انتصاراً مبدئياً حتى اضطر إلى التراجع؛ ليخبر الملك بأن شيركوه قادم بجيشه نحو مصر، ومن جهة أخرى لم يستطع عموري فرض حصار تام على مدينة القاهرة بدلالة تغييره لمعسكره أمامها أكثر من مرة خلال مفاوضاته التي تلت مع شاور، حيث نقل عموري معسكره من أمام القاهرة إلى موضع بعيد عنها بما يقرب من ميل من القاهرة عند حديقة البلسم حيث بقى به ثمانية أيام ثم نقل عموري معسكره مرة أخرى إلى سرياقوس[1]، مما جعل حصاره للقاهرة عديم القيمة، وهنا كان على عموري أن يُعيد ترتيب أوراقه من جديد بناء على هذا الواقع؛ ذلك أنه ظن أن الاستيلاء على القاهرة سيكون سهلاً إذا ما نجح هناك قبل أن يتحرك إليه نورالدين، وهو الأساس الذي اتخذه البارونات لتقوية حجتهم في إقناعه بألا يُعير نورالدين انتباهه بسبب انشغاله في مشاكل دولته.

ومن ناحية أخرى يصعب فهّم بطء حركة عموري من بلبيس إلى القاهرة، طالما يسعى لاقتناص فرصة ابتعاد نورالدين عن مصر وسلب شاور المبادرة، خصوصاً أن الحريق الذي أشعله شاور في الفسطاط لم يمنعه من التقدم نحو القاهرة، كما لم يكن عموري غبياً إلى الحد الذي يغفل فيه عن دهاء شاور بحيث يقع في فخه حينما اتبع شاور معه بعدئذ أسلوب مماطلة واسع المدى، ربما كان يعني إذا ما غاب عن ذهن عموري أنه لم يفهم شاور بعد، كما يُوحي بقبول عموري للمال الذي كان وسيلة شاور للمماطلة، وهذا غير صحيح لأن المال لم يكن هدف الحملة منذ البداية، وإذا كان الأمر كذلك فإنه كان يأتيه إلى المملكة بشهادة الملك عموري ذاته، وعليه

بأن صغر حجم الجيش وعجز الأسطول عن دخول المياه المصرية النيلية، ثم المذبحة التي نمت عن تعارض كبار القادة وصغار الجند وهي بلا شك أحداث عشوائية، بأنها جميعا كانت سبباً في فشل الحملة بالرغم من الظروف الجغرافية التي كانت في صالح الصليبيين. انظر:

Yaacov Lev, *Saladin*, pp.59-61.

(١) يرجح حسن حبشي عن محمد رمزي أن سرياقوس بكسر السين، من المدن المصرية القديمة، وأنها كانت عزبة في أول نشأتها، أنشأها سرياقوس والي أتريب فسميت باسمه.

انظر تعليق حسن حبشي على ترجمته لكتاب وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٦٣، حاشية رقم١٦.

obeikandl.com

يعود الباحث إلى النقطة التي بدأ منها؛ وهي لماذا مال عموري مع شاور في مفاوضات طويلة يعرف مسبقاً أنها لن تؤدي إلى شيء؟

لم تسمح المصادر بالاقتراب من هذه النقطة، وجل ما يمكن تقديمه مجرد احتمال تقريبي لما حدث؛ إذ يبدو أن عموري كان متأثراً إلى حد كبير بما أحدثه الجيش في بلبيس وأنه أخذ وقتاً للسيطرة على الموقف، وفي الوقت الذي بدأ يتحرك فيه صوب القاهرة فشل أسطوله في التقدم إليها، بينما كان شاور يُعد لإحراق الفسطاط، وهو ما حدث قبل وصول الملك إليها بيوم واحد، بل وهدده شاور بإحراق القاهرة إذا ما تقدم إليها أكثر من ذلك، بينما كان شاور مشغولاً بجمع المؤن والإمدادات والجنود من كافة أنحاء مصر لتقوية القاهرة وإعدادها لعملية حصار طويلة[1]، على حين خدمته الظروف في إبقاء اتصال القاهرة مفتوحاً بباقي المدن النيلية عن طريق النيل؛ بسبب فشل الأسطول الصليبي في اختراق النيل[2].

ويبدو أن مفاوضات شاور مع عموري كانت تتضمن شيئاً ربما لم تشر إليه المصادر، وهو تهديد شاور لعموري بالاستعانة بنورالدين ضده في هذه المرحلة، إضافة إلى بند الأموال التي تلاعب بها شاور بعموري تلاعباً كبيراً، فبعد أن وعده بألفي ألف دينار بدأ هذا المبلغ ينخفض تدريجياً بحيث لم يتلق عموري في يديه سوى مائة ألف دينار هي كل ما تحصّل عليه من عملية المساومة، بل إن شاور لم يُضطر إلى دفعها إلا لفداء ابنه ووعده بدفع الباقي على فترات، والأمر الغريب أن عموري كان يعي جيداً أن ميزانية مصر لم تكن تسمح بدفع مبلغ كبير كهذا دفعة واحدة، وربما لمدة طويلة[3] ولذا فما الذي يجبره على قبول عرض كهذا منذ البداية؟

([1]) انظر في ذلك: المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣٩٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٥٠.

([2]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٠٧.

([3]) أقر وليم الصوري صراحة أن ميزانية مصر لم تكن تسمح بأن تدفع مبلغاً كبيراً كهذا ولو على فترات طويلة، والواقع أن المبلغ الذي اتفق عليه لم يكن ثابتاً في الروايات التي عالجت علاقة عموري بشاور؛ فبينما يُشار إلى المبلغ في بداية عملية المفاوضات التي سبقت تقدم عموري إلى القاهرة بألفي ألف دينار، فإنه لم يستقر على هذا الحال وبدلاً من ازدياده نتيجة لسوء موقف شاور فإنه بدأ يتناقص مع طول عملية المفاوضات التي كان شمس الخلافة يديرها مع الملك عموري،

ربما أراد أن يتخذها "مسمار جحا"، بحيث يظل باقياً بها طالما لم يحصل على أمواله، بيد أن التهديد باستدعاء نورالدين، ووصول إشاعات تفيد باقتراب شيركوه كانت تعني أن يخسر عموري كل شيء في مصر، وأدرك عندها أنه لم يكن مستعداً منذ البداية لمواجهة شاور وحده وأنه استهان به وبمقاومة الشعب المصري، فما باله إذا ما اضطر لمواجهة كل من شيركوه وشاور معاً، وعلى هذا الأساس ظلت مفاوضاته مع شاور قائمة، وتشير بعض المصادر إلى أن شاور كان يتردد على معسكر الملك عموري، الذي انتقل أكثر من مرة بعيداً عن القاهرة في الفترة التي تردد فيها شاور عليه، وذلك بناء على طلب شاور(1)، وهذا يعني أنهما بدءا يصلان إلى اتفاق ما يحقق هدف كل منهما في الخوف من المصير الذي سيترتب على قدوم شيركوه؛ لأن قدومه يعني أن يخسر عموري مصر إلى الأبد ويفقد شاور سلطانه إذا ما حدث صدام حقيقي بين شيركوه وعموري.

ويدلل تحرك عموري إلى الشمال من القاهرة على أنه كان يسعى لتأمين نفسه، بحيث لا يضع نفسه بين شقي الرحا إذا ما فاجأه جيش شيركوه عندها، وفي الوقت ذاته يكتسب من شاور ثقة ربما تفيد في المستقبل، كما تؤكد تقارب ما يخشيان مواجهته، ولكن ما لم يقم عموري بحسبانه جيداً هو أن يُقتل شاور بعد أن يستقر شيركوه في مصر، وبخاصة أن ثمة رواية معاصرة تُشير إلى حديث شمس الخلافة مع الكامل ابن شاور، يحذر فيها الأول الثاني بأن والده شاور ينوي أن يُقاوم حتى النهاية فإذا غُلب على أمره فإنه سوف يُسلّم مصر إلى الملك عموري(2).

فانخفض إلى ألف ألف دينار على أن يُدفع على فترات متتابعة ثم إلى أربعمائة ألف دينار ثم إلى المائة ألف التي دفعها شاور للملك عموري، مما يدل على نجاح شاور في مساومته للملك عموري.انظر في ذلك:

وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٠٧.وانظر أيضاً: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٠٠، الباهر، ص١٣٨؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٣٣؛ البنداري: سنا البرق، ص٣٩-٤٠؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ١، م٤، ص٢٨.

(1) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٠٥-١١٠؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٨؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٩١-٣٩٢؛ ابن الفرات: تاريخه، م٤، جـ١، ص٢٥.

(2) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٣١-٤٣٢.

ولكن من الذي بادر بالاتصال بنورالدين شاور أم العاضد؟ أظهرت المصادر اتصال الاثنين، حيث ذكر بعضها أن الكامل ابن شاور هو الذي أشار على الخليفة العاضد بطلب مساعدة نورالدين، بناء على نصيحة شمس الخلافة، على حين يُشير آخرون إلى أن شاور هو الذي اتصل بنورالدين حينما أيقن بخطورة عموري، ولكن لماذا لا يكون شاور هو الذي استعان بنورالدين هذه المرة أيضا(١)؟ لقد سعى شاور - عقب أحداث البابين والإسكندرية الأخيرة - إلى مراسلة نورالدين ومهادنته بحيث يصرف شيركوه عن التعرض به وبمصر، ثم بعث إليه بخطاب يشير فيه إلى إقناعه لشيركوه بذلك، وما يفيد محاولة إزالة ما علق بنفسية نورالدين من ضغينة أو كره تجاهه، ولم يكن نورالدين بالرجل الذي يرفض عرضاً كهذا، خصوصاً إذا كان يؤدي إلى وقوف مصر على الحياد بين المعسكرين الصليبي والإسلامي حتى تحين الفرصة المناسبة(٢).

وأما عن أسباب إقدام شاور على مراسلة نورالدين فيُجابُ عليها من واقع تاريخه وتصرفاته الأخيرة التي كانت تهدف إلى اكتساب كافة الأطراف وعدم خسارة أي منها، بما يكفل له استخدام التوازن الذي يحرص عليه كل طرف حتى يظل في سلطته، وهنا ربما يكون شاور هو الذي دفع بالعاضد إلى مراسلة نورالدين، سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أم أنه دفع بمن يقوم له بذلك(٣)، بحيث يبدو التماس مساعدة نورالدين بعيد عنه، ويمكنه كشفه إذا ما نجح نورالدين في البقاء في مصر، وفي الوقت ذاته يظل خافياً على عموري في حالة تقدمه.

وقد لعب شاور دوره ببراعة مرة أخرى حيث أخذ يماطل تقدم عموري إلى القاهرة ريثما يصل شيركوه من جهة، وفي الوقت ذاته ظل على اتصاله بالملك

---

(١) يؤكد شولمبرجيه أن شاور هو الذي اتصل بنورالدين وأنه كتم ذلك حتى يستطيع مماطلة شيركوه بعدئذ حينما يبدأ في المطالبة بحقوقه وحقوق جيشه. انظر:

Schlumberger, *Campagnes*, pp.200-201.

(٢) ابن الفرات: تاريخه، جـ١، م٤، ص٥-٦؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٨٧.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١٠٤؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٩؛ الباهر، ص١٣٤؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٣٢؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٣٠.

عموري كاشفاً له عن تدخل العاضد في مراسلة نورالدين وعن كره المصريين له؛ لاستعانته به فيما سبق ليخيف عموري من جهة أخرى، ثم تقدم شيركوه إلى مصر بتكليف من نورالدين ولم يجد شيركوه صعوبة في دخول مصر وعندها انسحب عموري من أمام القاهرة تماماً، وحينما رحل عموري راضياً عن تفاهمه مع شاور، بما يستدل عليه من الحديث الذي دار بين شمس الخلافة رسول شاور والملك عموري بشأن طلب شاور من عموري مسامحته في المبلغ الذي تعهد شاور بدفعه للملك[1]، فإن شاور حرض شيركوه على تتبع عموري وذلك للإيقاع به قبل أن يبعد عن مصر، وكان من الممكن أن ينجح شاور في ذلك لو أنه كان يُحرّض أبلهاً أو غبياً لا شيركوه، الذي كان يدرك طبيعة شاور وتكوينه، ومتفهماً للمغزى الذي يسعى إليه، ولذا فقد تعلّلَ شيركوه بإرهاق جيشه الذي لابد أن يأخذ قسطاً من الراحة[2].

وبالرغم من ذلك فإن شاور لم يقف مكتوفي الأيدي، بل ظل يدبر في مؤامرة يقضي فيها على شيركوه وقادته في وليمة يدعوهم إليها، بيد أن ابنه الكامل أثناه عن ذلك، حتى لا يُقال أنه باع المسلمين للصليبيين ولأن عموري سوف يعود إليها بمجرد علمه بمقتل شيركوه وقادته، وعندها لن تأتيه مساعدة من نورالدين حتى وإن مشى إليه العاضد بنفسه[3]، وسواء اقتنع شاور بحديث ابنه أم لا، فإنه لم يعد يملك روح المبادرة وحده؛ إذ أصبح شيركوه مستقراً الآن قرب القاهرة في موضع يعرف باللوق، بالقرب من القاهرة، وعما قليل سوف يطالب العاضد بوعوده وربما يجبره على تنفيذها، لذا فإن شاور اضطر إلى مداراة شيركوه ولكن إلى متى؟

---

(1) يبدو رضاء عموري عن شاور أو على الأقل عدم نقمته عليه في آخر طور من مفاوضاته مع شاور ومسامحته له فيما اتفقا عليه من أموال. راجع في ذلك: أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٣٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٩٩-٣٠٠؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٨١؛ ابن الفرات: تاريخه، م٤، جـ١، ص٢٨.

(2) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣٠٠ ؛ ابن الفرات: تاريخه ، جـ١، م٤، ص٣٠.

(3) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٨٢؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣٠٠ ؛ ابن الفرات: تاريخه، م٤، جـ١، ص٣٣؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٣٤؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٩٦.

obeikandi.com

لقد كان في بقاء أحدهما قضاء على الآخر، خصوصاً أن خطر وجود الأتراك والأكراد تعادل مع رؤية المصريين لشاور وربما كان موقف الأُول أفضل من الثاني[١]؛ إذ عانى الشعب المصري مؤخراً خلال وجود الملك عموري في مصر في الفترة الأخيرة، بداية بالمعاملة السيئة التي وجهتها حامية عموري ووكلائه في مصر للمصريين، مروراً بما ارتكبه جيش الملك في بلبيس، أتم شاور بعدها معاناة رعاياه بإحراقه للفسطاط وتشريده لأسرها وما كابده المصريون خلال أحداث حصار عموري للقاهرة من قتل وسبي واعتداء على حرماتهم ونسائهم[٢]، ولأن شاور كان رمزاً للوجود الصليبي في مصر، فقد كان من الطبيعي أن يُنسب ما أحدثوه إليه، وكان كره الرعايا له يعني ارتمائهم في أحضان الأتراك أعدائه، بعكس ما كان يحدث فيما سبق، ولذا فإن تولية أيام شاور وانقضائها كانت تعني ذهاب حلفاء عموري ومملكته من مصر.

لقد كانت حملة عموري الرابعة على مصر مغامرة خطيرة للغاية لم يُراعِ معها الملك قوة بأس المصريين، أو احتمال استدعاء نورالدين إليها، أو تصدي شاور له برغم تحالفه معه، بل إن الملك لم يُعدّ لحملته بما ينبغي أن يُعدَ لمشروع كهذا، ربما لم يكن يعلم خطورته أو تداعياته وأسبابه وما يمكن أن يلاقيه من عقبات أي ملك آخر للمملكة مثل عموري نفسه؛ ذلك أن رصيده في التعامل مع شاور والمصريين لم يكن قليلاً، وفي ترجيح الباحث أن مصر ضاعت من عموري في هذه الحملة بالذات وأن كافة محاولاته التي تلت كانت عبثاً وبلا طائل، سواء كانت محاولات فردية مع بعض

---

(١) اختلفت المصادر الإسلامية في تقدير حجم جيش نورالدين، فبينما قدره ابن الأثير والمقريزي بثمانية آلاف مقاتل كانوا رهن إشارة شيركوه، ولم يرحل منهم أحد بعد مقتل شاور كما لم يفقد منهم أحد وعليه فإنهم ذكروا من موقف شيركوه فإن ابن العبري يقول أن نورالدين سيّر معه جيوش ضخمة دون أن يحدد عددها، أما ابن الفرات فحدد عدد قوات شيركوه بسبعة آلاف مدرع، على حين كان تقدير الذهبي مبالغاً فيه؛ لأنه قدر الجيش بسبعين ألف بين فارس وراجل، ويبدو أن عدد الجيش لم يزد عن تقدير ابن الأثير ولم يقل عن تقدير ابن العبري. انظر: ابن الأثير: الباهر، ص١٣٩، الكامل، جـ٩، ص١٠٠؛ المقريزي: جـ٣، ص٢٩٤-٢٩٥؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٨٢؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ١، ق٢، ص٢٦. الذهبي، العبر، جـ٣، ص٤٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٩، الباهر، ص١٣٧.

المصريين، أم بالتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية، كما سيشير الباحث بعد قليل، وهذا يعني أن أنانية الملك وتسرعه وجشعه، كان لهما أسوأ الأثر في فشل المشروع الذي رأى به إمكانية استمرار المملكة.

ولعل أصدق تعبير عن النتيجة التي آلت إليها الحملة ما يمكن لمسه في كلمات وليم الصوري "فيا لجشع الرجال الأعمى الذي هو أشد وأنكى من كل جريمة نكراء!!!..ويا لخساسة القلب الشره الطامع!!!..لقد كانت جميع مصادر مصر وثرواتها الضخمة كافية لسد حاجاتنا، وكانت حدود مملكتنا معها آمنة ولم يكن هناك من عدو نخشاه من الناحية الجنوبية، كما كان البحر آمناً يرفرف عليه السلام لمن يسعون للمجيء إلينا، وكان قومنا يدخلون أرض مصر آمنين غير خائفين مطمئنين في استبضاعهم ومتاجرتهم، كما أن المصريين كانوا من جانبهم يجلبون إلى المملكة الثروات الأجنبية والبضائع الغربية التي لم نكن نعرفها من قبل، وكان مقدم خير وسعادة لنا، وزيادة على ذلك فإن ما يصرفونه من الأموال بيننا كل عام يملأ خزائننا ويزيد من دخل كل شخص، أما الآن فقد انقلب الحال رأساً على عقب وتغير كل شيء إلى ما هو أسوأ...إنني حيثما قلبت ناظري لم أر إلا ما يدعو للفزع والاضطراب، فلم يعد البحر كما كان من قبل معبراً آمناً وأصبحت جميع الأراضي التي حولنا تخضع للعدو، وشرعت الممالك المجاورة لنا تتأهب للقضاء علينا ومحونا من الوجود...إن جشع رجل واحد جلب علينا كل هذه البلايا، كما أن طمعه - الذي هو أسّ الشرور - قد عكر صفو سمائنا، وهو صفو كانت تظللنا به العناية الربانية من قبل(١) ".

ولكن إذا كان وليم الصوري محقاً في أحد جوانب نقده اللاذع للملك فإنه يصعب قبول نقده كلية وذلك بتفهم الخلفية التي كتب على أساسها وليم هذا النقد، فمن ناحية جاء نقده عقب خروج الملك عموري في حملته على مصر مما ضيع من حلاوة النصر الذي حققه وليم الصوري في معاهدته مع الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس، وهنا كان من حقه الثورة على تصرف الملك الذي لم يكن مقبولاً لدية وبخاصة أن الحملة فشلت وعرّضت مصر للضياع من يده.

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٢-١١٣.

وأما ما يجب التعامل معه بحذر فهو أن وليم الصوري كان يفلسف موقفاً عاماً مر عليه وقت طويل وبخاصة أنه لمس في وقت كتابته لمؤلفه شدة الضعف الذي تعاني منه المملكة، وقد مات وليم عام ١١٨٦م/٥٨٢هـ قبل أن يقوم صلاح الدين باسترداد بيت المقدس بعدة سنوات، بيد أنه كان يرى في كل ما صاغه في تاريخه في نهاية أيامه تلك النتيجة، ولعله وجد العلة بدأت تشتد بالمملكة منذ تلك الحملة التي فشلت وترتب عليها ضياع مصر، ومن ناحية أخرى لم تكن ثورة وليم الصوري على الملك عموري قائمة على أساس أخلاقي كما يبدو من ثنايا كلماته؛ إذ يُظهر النص السابق أن وليم الصوري كان حريصاً على السلام مع مصر..!! ولكن ألم يذهب وليم بنفسه على رأس سفارة إلى بيزنطة في العام السابق لعقد معاهدة مع مانويل لأجل غزو مصر بمساعدة الإمبراطورية؟

ومما وقع فيه عموري من أخطاء أخرى آلت بالحملة إلى تلك النتيجة تحركه نحو مصر دون انتظار المساعدة البيزنطية، مفضلاً ألا تشاركه بيزنطة في مصر أو في غنائمها، فضلاً عن اصطدامه بدهاء شاور، كما لم يُقدّر عموري قوة مصر الحقيقة، ذلك أنه فوجيء بقوة المصريين حينما استفزّ الشعور المصري ضده؛ إذ كان المصريون منذ قليل يفضلون تسليم مصر للملك عموري على أن يظلوا تحت أنياب شاور، بصورة جعلت المصادر تُقرّ بأن مذبحة بلبيس كانت بداية لفشل عموري في الاستيلاء على مصر.

ومما أخطأ فيه الملك أيضاً إبطائه من حركته في أثناء زحفه من بلبيس إلى القاهرة، وكان بإمكانه إذا ما أسرع إليها أن يتمكن منها قبل أن يتخذ شاور أي تصرف دفاعي، مثل الاتصال بنورالدين وتحصين القاهرة وتزويدها بالإمدادات والمؤن والرجال، وأخذ الاحتياطات الكافية لسد منافذ النيل على السفن الصليبية، إضافة إلى أن الأسطول البيزي لم قوياً ليتمكن من التغلب على مقاومة المصريين له، ومن جهة ثانية تراخى عموري أمام مساومات شاور ومقايضاته التي أفضت إلى ضياع الوقت سدى، بحيث كان وصول شيركوه إلى مصر إنذاراً للملك عموري بالانسحاب[1].

---

(1) في انسحاب عموري من مصر انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية جـ٤، ص١٠٨-١١٠؛

أياً ما كان الأمر كانت رحلة الملك من مصر إلى بيت المقدس في ٢ من يناير١١٦٩م/ غرة ربيع الآخر٥٦٤هـ، أي بعد وصول شيركوه إلى مصر بقليل ويرجح أنه كان في ذهن الملك أثناء رحيله عن مصر ما ساقه ابن الأثير "ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليهم، وربما سلّمت إلى نورالدين فأجابوا كارهين وقالوا: نأخذ المال نتقوى به ونستكثر من الرجال ونعود إلى البلاد بقوة لا نبالي معها بنورالدين ولا غيره(١)" بل إن ابن الأثير علّقَ على خيبة أمل الملك عموري، بحيث أنه سبَّ كل من أشار عليه بغزو مصر في تلك الحملة(٢).

وعلى الرغم من إجماع معظم المصادر على رحيل عموري عن مصر في هدوء عقب انسحابه إلى بلبيس، حتى يأمن انسحاب آمن لجيشه وبحيث لا يطوقه كل من شيركوه وشاور، أو كان ينوي اتخاذ بلبيس فخاً للإيقاع بشيركوه، فإن ابن أيبك الدواداري يشير إلى احتشاد عموري بجيشه في بلبيس وإرساله لفرق منه للاستيلاء على بعض نواحي البحيرة والقليوبية، ثم تحركه هو ذاته إلى الإسكندرية محاولاً الاستيلاء عليها، بيد أنه فشل في خطته ثم اضطر أمام تقدم شيركوه إليه بالإسكندرية إلى التفاهم معه وعقد الصلح ورحل بعدها إلى بيت المقدس(٣)، بيد أنه يصعب قبول ما ورد فيها، فمن ناحية لم يُشر غيره إلى اقتراب عموري في هذه الحملة من الإسكندرية، ومن ناحية أخرى لم يقم عموري في مصر وقتاً كبيراً عقب وصول شيركوه إليها، لأنه رحل عن مصر في ٢من يناير١١٦٩/غرة ربيع الآخر٥٦٤، بل وقبل أن يُقتل شاور بعد ذلك بعدة أيام.

المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣٩٦؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ١، م٤، ص٢٤-٢٥؛ البنداري: سنا البرق، ٣٩-٤٠؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٣٢-٤٣٣؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٢٩-٣٠. أيضاً:

Schlumberger, *Campagnes*, p.253; Lilie, *Byzantium*, p.200.

ويُرجّح ليلي أن هذه الأخطاء التي وقع فيها الملك عموري هي السبب في نقد وليم الصوري له.

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٠٠، الباهر، ص١٣٨. وأيضاً: ابن شداد: النوادر، ص٢٥.

(٢) ابن الأثير: الباهر، ص١٣٩.

(٣) انظر في ذلك: ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٣١-٣٢.

obeikandi.com

وأياً كانت الصورة التي انسحب بها عموري عن مصر، فإن الواقع لا يشير إلى حدوث تغير فيما طرأ من أحداث، وكان من الممكن أن يكون خروج عموري من مصر أمراً عادياً مثلما سبق وحدث من قبل عدة مرات، بيد أنه طرأ الكثير من التغيرات في مصر أدت مع الوقت إلى إعادة صياغة أوضاع كثيرة، ربما أثرت بشكل كبير على مستقبل مملكة بيت المقدس؛ إذ أعقب استقرار شيركوه في مصر قيام شاور بممارسة سياسته القديمة في مماطلة شيركوه ومداهنته[1] فجمع الأخير" أصحابه وشاورهم في أمر شاور وقال لهم: قد علمتم رغبتي في هذه البلاد ومحبتي لها وحرصي عليها، لا سيما وقد تحققت أن عند الفرنج منها ما عندي، وعلمت أنهم قد كشفوا عورتها، وعلموا مسالك رقعتها، وتيقنت أني متى خرجت منها عادوا إليها واحتووا عليها، وهي معظم دار الإسلام وحلوبة بيت مالهم، وقد قوي عندي أن أثب عليها قبل وثوبهم، وأملكها قبل مملكتهم وأتخلص من شاور الذي يلعب بنا وبهم ويغرنا ويغرهم، ويضرب بيننا وبينهم، وقد ضيّع أموال هذه البلاد في غير وجهها، وقوى بها الفرنج علينا، وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبقهم إلى هذه البلاد التي قلَّ رجالها وهلكت أبطالها[2]".

وهذا في حد ذاته يشير إلى السمعة التي تمتعت بها قوة المملكة، بحيث وصل الخوف منها إلى درجة أرعبت جيوش نورالدين في مصر، وبخاصة أن بقاء شاور في ممارساته تلك كان من الممكن أن تستمر إلى أجل غير مسمى؛ إذ يطلعنا ابن تغري بردي على محاولة أخيرة لشاور حاول خلالها الاتصال بالملك عموري، مقترحاً قيام

---

(1) عن مماطلة شاور للملك عموري ومراوغته انظر: أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٩١-٣٩٢؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ١، ق٢، ص٢٥؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٨١. وأيضاً:
Schlumberger, *Campagnes*, p.253.

(2) انظر رواية ابن أبي طي لدى: أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٣٥-٤٣٦. ولمزيد من التفاصيل انظر أيضاً: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٠٠-١٠١، الباهر، ص١٤٠؛ ابن شداد: النوادر، ص٢٥-٢٦؛ ابن الفرات: تاريخه، جـ١، م٤، ص٢٩-٣٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٧، ص١٤٩؛ ابن أيبك: الدر المطلوب، جـ٧، ص٣٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣٠٠؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٨٢؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٩٦-٤٠١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٥١-٣٥٢.

عموري بمهاجمة دمياط، في الوقت الذي يثور فيه شاور في الداخل على شيركوه، وحينما تأخر عموري في الرد عليه قرر شاور القيام بمؤامرة يقضي فيها على شيركوه وكبار قادته، وعندها يمكنه الاستغناء عن خدمات كل من نورالدين وعموري؛ لأنه كان يخطط لاستمالة الجند الشامين، وكان شاور بارعاً في ذلك، بيد أنه لم يُقدّر له إتمام مخططه؛ بسبب إطلاع ابنه على مخططه وإقناعه لأبيه بالعدول عنه(١).

والحقيقة أن الجزء الأول من رواية ابن تغري بردي - الذي يدور حول اتصال شاور بالملك عموري - جديد على النص الذي أوردته المصادر التي عالجت هذه القضية، وعلى الرغم من قيام حملة صليبية بيزنطية على دمياط في الأشهر التالية لمقتل شاور، بيد أنه لم يُشر إليه بصفته أحد المقترحين للمشروع، ولم يكن ابن تغري بردي معاصراً لتلك الأحداث، كما لم يترتب عليها اتخاذ عموري أي تصرف حيال مصر، ولم تُبدِ المصادر المعاصرة حدوث شيء من هذا القبيل وبخاصة أن وليم الصوري ذكر تفاصيل دقيقة عن التطورات التي شهدتها مصر عقب خروج عموري ولم يكن فيما بينها ما أشار إليه ابن تغري بردي، وإن كان الباحث لا يستبعد قيام شاور بأي تصرف أو ذهاب فكره إلى أي اتجاه، طالما يُمكنّه من الاحتفاظ بسلطانه في مصر(٢).

ولم يكن شيركوه غافلاً عن مماطلة شاور أو ما يمكن أن يدور في عقله بدليل معرفته بما دار بينه وبين ابنه حول مؤامرته للقضاء على شيركوه، والأبعد من ذلك تفهم شاور وابنه لما قد يترتب على محاولة الاتصال مرة أخرى بعموري، وكان قرار شيركوه يقضي بضرورة التخلص منه، وقد مر قتله دون حدوث أية مشاكل داخلية، وكأن التخلص منه أمنية طالما حلم بها معاصروه(٣)، وبالرغم من حمل شيركوه لقب

---

(١) انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٥١.

(٢) انظر في ذلك: العرقلة: ديوان عرقلة الكلبي، تحقيق: أحمد الجندي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م، ص٣١، ٣٢، ٤٩، ١٠٧-١٠٨.

(٣) يؤيد بعض المؤرخين أن شيركوه هو الذي أمر بقتل شاور وأن إقحام صلاح الدين في ذلك الأمر، ربما كان بتأثير سياسي روعي معه إرضاء صلاح الدين خلال سلطنته فيما بعد. انظر في

وزير فإن شاور كان بحق آخر الوزراء المتسلطين الذين تحكموا في الدولة الفاطمية تحكماً أدى إلى ضعفها وجرّ إليها أقدام كل من عموري ونورالدين، وكان صراعهما عليها آخر ما سطرته المؤلفات التاريخية من أحداث مهمة في تاريخ الفاطميين.

وقد أيقظ اعتلاء صلاح الدين للوزارة الرغبة لدى العاضد الفاطمي وكبار رجال دولته في استعادة ما ضاع منهم منذ أمد طويل، وعلى هذا الأساس قامت حركة مؤتمن الخلافة ضد نفوذ صلاح الدين، وذلك بمحاولته لعب الدور الذي سبق أن لعبه كلاً من ابن قرجلة وعلم الملك ابن النحاس ويحيى بن الخياط وشاور ذاته، بالاتصال بعموري، بيد أن محاولته أجهضت في مخاضها، ولاريب أن الخليفة العاضد كان أحد المشتبه في تورطهم إلى جانب مؤتمن الخلافة، بل الواضح أنه كان ردة فعل معبرة عن فشله في تحقيق أحلامه من تعيين صلاح الدين في الوزارة عقب وفاة عمه أسدالدين؛ إذ رأى فيه العاضد شاباً ربما لا يملك فرقة عسكرية كبيرة أو مساندين أقوياء، ولذا فقد نبع اختيار العاضد له عن رغبة خبيثة في استخدامه للقضاء على نصف الجيش التركي بينما يبقى هو على رأس الباقين تحت طوع أمر العاضد، وكأن تعيين العاضد لصلاح الدين مجرد سلم يرتقي به للسلطة التي فقدها، ولم يدر بخلده أنه يبحث عن هلاكه وهلاك دولته بيده، لكنها محاولة في غاية الذكاء استهدف من خلالها إذابة الكيان التركي النوري في الهيكل الفاطمي المصري بما يمكنه من التخلص من الصليبيين والمسلمين في الوقت ذاته، والشيء الغامض في هذه المؤامرة هو ما إذا كانت رسل مؤتمن الخلافة قد استطاعت التفاوض مع عموري قبل اكتشاف رسالته إليه، أم أنها كانت الرسالة الأولى التي قُدّر لها عدم الوصول إليه بوقوعها في أيدي

ذلك: حسن حبشي: نورالدين، ص١٢٩. وأيضاً: Yaacov Lev, *Saladin*, pp.62-66.

وعن مقتل شاور واعتلاء شيركوه للوزارة انظر: ابن الأثير: الباهر، ص١٣٩-١٤٠؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٠٢-٤٠٨، ٤٣٨؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣٠٢-٣٠٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٧، ص٤٩-٥٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٣٥٣.

obeikandi.com

رجال صلاح الدين[1].

وهنا أفضى صراع عموري على مصر لأول مرة إلى نتيجة ملموسة، وهي خسارته لها خسارة حقيقية؛ لأنها -بعكس المرات السابقة- وقعت في صف المعسكر المعادي، وخرجت لأول مرة عن عزلتها الحيادية، وقد ارتبط هذا الحياد بوجود شاور فيها الذي حل صلاح الدين محله الآن، أما عموري فإنه لم ييأس مما آل إليه أمر مصر، بل لقد تأكد لديه الآن الخطورة الفعلية التي يمكن أن تعانيها مملكته عن وضع مصر الجديد، وأنه إن كان قد حاول وفشل، فلاريب أن المستقبل يعني تصحيح هذا الفشل.

(1) عن اعتلاء صلاح الدين الوزارة انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٠٢؛ الباهر، ص١٤٢؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٠٧-٤٠٨؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٧، ص١٥٣-١٥٥؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٤، ص١١٤؛ وأيضاً: ستانلي لين بول: صلاح الدين، ص١٠١. وعن فتنة مؤتمن الخلافة الذي قُتل في ذي القعدة أغسطس١١٦٩م/٥٦٤هـ انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص١٠٣-١٠٤؛ البنداري: سنا البرق، ص٤٣-٤٤؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٤٥٠-٤٥٢؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٣١١-٣١٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، جـ٥، ص٣٥٤. وأيضاً:

Richard of Holy Trinity, *Itinerary*, pp.7-8. See also: Richard, *Le Royaume Latin*, p.54.